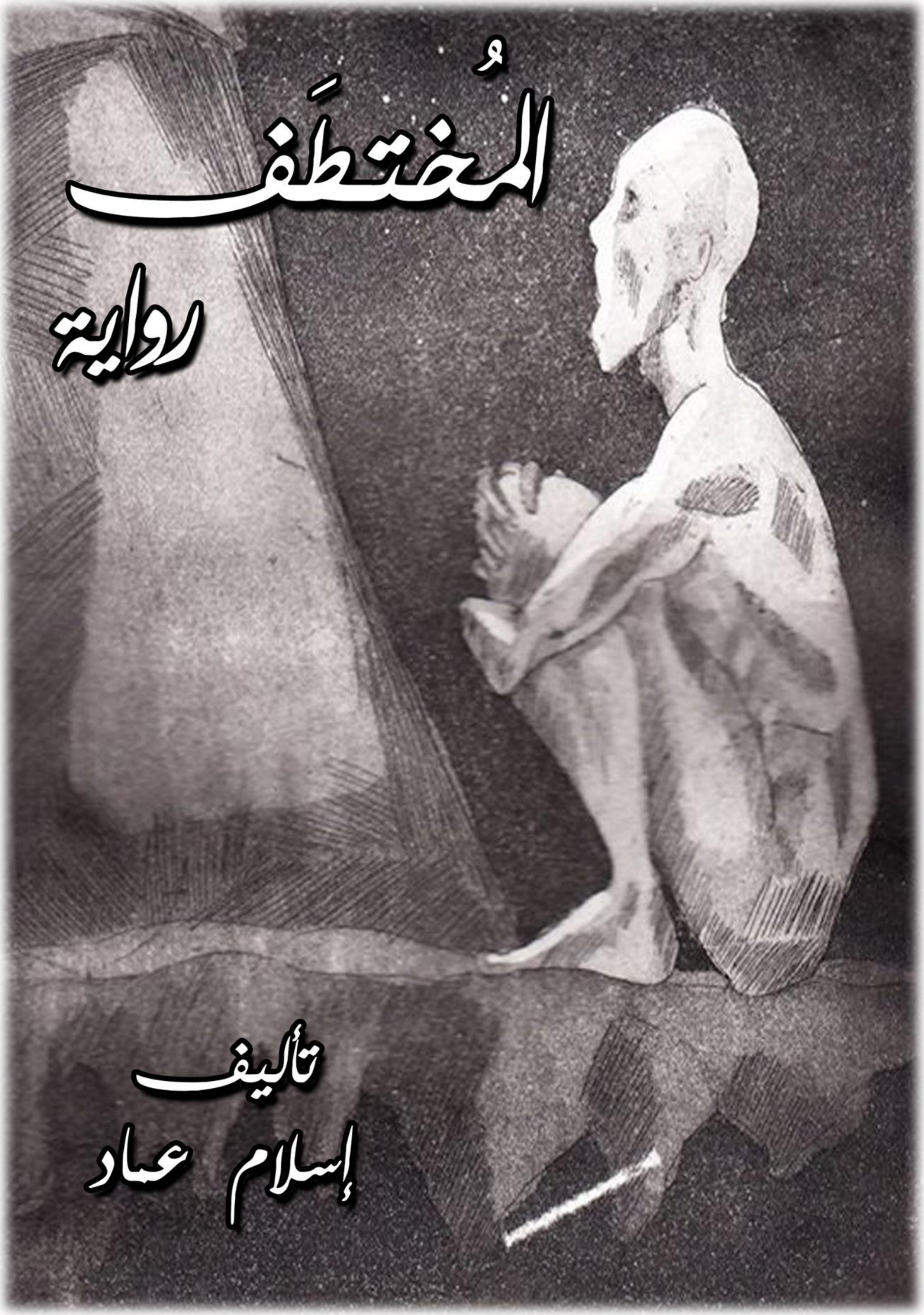
المُختطَف
رواية
تأليف
إسلام عماد

إسلام عماد محمد فهمى

كلية الفنون الجميلة جامعه حلوان

الفرقة الثالثة قسم جرافيك

تليفون : 01064949007

رواية

المختطف

تأليف

إسلام عماد

ملحوظة:

الغلاف مأخوذ من عمل فنى للفنان "محمود جنينه"

طالب بالفرقة الثالثة بكلية فنون جميلة جامعه حلوان

اليوم الاول

ظلامٌ دامسٌ...

فى بدءِ الخليقةِ كان الظلامُ, و فى بدايةِ قصتى كان الظلامُ أيضاً...

أول ما أدركته أمامى كان الظلام...سوادٌ هائلٌ جعلنى أظن إنى قد فقدت نعمةً البصرِ..ربما فقدته بالفعل..

لستُ أدرى..

أفرك عيناى هلعاً, لا أدرى أين أنا ولا كيف أتيت...تنتابنى خيالات وامضة أرى فيها نفسى فى حياتى العادية...شخص من ملايين الأشخاص على وجه الأرض يقضون حيواتهم بالشكل المعتاد..أسير بأحد شوارع العاصمة ثم تأتى تلك الأيادى الغليظة الممدودة تجاهى, فتقبض على رقبتى بكل قسوة و تنتزعنى من موضعى بسرعه و عنف...إبرة محقن تُغرس فى ساعدى, ثم رباط قماشى يمنع عن عينى الرؤية...لا لم يكن ذلك الرباط هو السبب فى انتشار الظلام بعقلى..فقد قام بتلك المهمة ذلك المحلول الذى سرى عبر الإبرة إلى دمى ثم عقلى فى نهاية المطاف....

بعد دقائق من الحيرة و الارتباك, بدأ عقلى فى تحليل الموقف من حوله...الارض باردة..باردة للغاية بالرغم من حلول فصل الصيف...أجلس عارى القدمين,أعتقد إنى مازلت مرتدياً حذائى وقت أن حدث ما حدث...

الظلام يمنعنى من اكتشاف المزيد من التفاصيل....

يبدو ان من احضرنى إلى هنا لا يمتاز بنزاهة النفس, جميع متعلقاتى قد سُلبت منى..اخذوا هاتفى الجوال و جميع اوراقى الشخصية واموالى...صدقاً لم تكن الاموال - بالنسبة للمقاييس العامة - بالكثرة التى تجعل المرء قلقاً على ضياعها, إذ هى بعض جنيهات مهترئة لا يرضى أى شحاذ بها...لكن لمن هم بوضعى, سيتسبب ذلك لى فى مزيد من القلق و الاضطراب...

****

مازال الظلام مستمراً...

بخلاف الظلام, اقلقنى ذلك الصمت الرهيب...صمت قاتل بالفعل, إننى اسمع انفاسى بصعوبة..هل اقتربت من الصمم بجانب العمى ام أن انفاسى صارت ضعيفه حتى باتت لا تُسمع ؟

هل انا ميت ؟ هل انا مدفون بقبرى آلان ؟ و إن كنت اظن أن مَن مثلى لا قبور لهم, بل تتكفل الطبيعه بدفنهم و الاستفادة من اجسادهم لإكمال دورة حياتهم...

القبور للملوك و الامراء وكبار السلطة...

إنها قاعده ثابته منذ الفراعنه و مازالت سارية إلى قيام الساعه...

لا اظن انى توفيت...لا يوجد من مات و مازال يتنفس و يفكر مثلى...و ما ادرانى،فلم يعد مِن قبل مَن مات ليحكى لنا عما فعله و فـُعل به...

احاول النهوض بجسدى لأستكشف المكان من حولى, و بمجرد ان اتكأت بمرفقى على تلك الارضية الباردة, داهمتنى الام شديدة سرت فى انحاء ذراعى و امتدت إلى صدرى و ظهرى...لم يرأف بيّ خاطفى, فلا مانع من كيل بعض اللكمات للمُختـَطـَف... فلتعتبرها نوعاً من التسلية, او تعويضاً متأخراً فى لنقص الدمى و الألعاب فى صغرك...

احتملت الآمى المتفرقة و استندت بذراعى حتى قمت و انتصب جسدى...اشعر بإعياء و دوار ينتشر بخلايا مخى الرمادية...وقفت بدون الاعتماد على شئ استند عليه, و بدأت فى النظر حولى...

الظلام هنا هو سيد اللعبة...

الهواء ثقيل...به احساس ترابى خفيف...

عقلى يستقبل كل ما يمكن استقباله من اشارات ضعيفة ترسلها له البيئة المحيطة لعل و عسى يمكنه تحويلها لمعنى محسوس...انا فى زنزانه تحت الارض...الهواء لا تيار فيه...و خلال ساعات يجب ان ابدأ فى القلق بشأن كيفية حصولى على الهواء...

****

اتحرك فى وهن متقدماً للأمام..اجهل إلى اين تأخذنى قدماى, ولكن اى موضع سيكون بالتأكيد افضل من الرقود على تلك الارض الساكنة الباردة ...

خطوة..خطوتان..ثلاث...

أعد خطوات حتى العشرة كطفل حديث العهد بالمشى على قدميه الواهنتين كعيدان المعكرونة...

عند نهاية الخطوة الحادية عشر تلمس اصابعى جداراً بارداً كتلك الارضية اللعينة..هذه هى حدودك ايها الفانى فلا تعبرها...استدر مرة أخرى و اكرر الخطوات العشر حتى اصل لنفس موضعى...لا ادرى ان كنت على صراط مستقيم ام ادور فى دائرة كثور فى ساقية...اتمنى ألا اكون كذلك..و إلا فكل مقاييسى خاطئة لا فائدة منها كأغلب قرارات حياتى...

زنزاتى ضيقة كالقبر...تعاودنى فكرة الوفاة ثانيةً.. لا اعلم ان كنت حياً او ميتاً...و لكن احتمال وفاتى اقرب للحدوث فى الساعات القادمة...

انتهيت من محاولة قياس تلك الزنزانة من حولى..ما فائدة ذلك غير ضياع الجهد و الوقت...ليس الوقت العام, فأنا لا اعلم كم الساعه الآن او فى اى يوم من الايام اكون..لكنه الوقت المتبقى من حياتى...

حياتى التى تكاد تنتهى إذا لم اخرج الآن من ذلك السجن المظلم...

****

لماذا احضرونى إلى هنا ؟؟

إننى حتى لا اعلم هوية خاطفىّ...و لست متأكداً ان كنت مسجوناً بصفة رسمية او غير رسمية..او اننى اختُطفت بواسطة بعض المجرمين...

لم اكن من ذوى الميول السياسية..طوال حياتى...ما شأنى أنا بتلك المشاحنات و المشاجرات, و حتى إن كان لى شأن بها, فلن اكون قادراً على الحصول على حقى منها...بالرغم من عندى الشديد الذى يمكننى من الظفر بما أريد..

نعم..طيلة حياتى كنت عنيداً...حتى و إن كان فى غير مصلحتى...اقود نفسى نحو حتفها بلا مبالاة,و لكن احتفظ بوجهة نظرى ثابتةً لا يمكن لأحد تغييرها او اصلاحها...

آه لو امكننى معاندة الآمى تلك...الألم يزداد مع مرور الوقت و قلة الهواء...صار الألم المتزايد كمطرقة تستمتع و تتلذذ بطرق جسدى و رأسى بلا هوادة...

****

اعتدت الظلام... لم يعد الظلام غريباً علىّ...حقاً للجسد البشرى القدرة على التكيف طبقاً للظروف المختلفة كما يقولون, ربما كان هذا السبب الحقيقى لبقائه كل تلك الفترة على سطح الارض...

حسناً ماذا عن مَن لم يستطع التكيف ؟ فليذهب إلى الجحيم كمن هو مثل حالتى...لا بكاء على الضعفاء..

اعتدت الظلام, فبدأت ادرك بصيصاً ضعيفاً من الرؤية حولى...

الاضاءة شبه منعدمة, ولكنى بدأت فى تمييز حركة يدى امام وجهى..ام لعلها خيال توهمه عقلى ؟؟

أكاد اجن...اين انا ؟ و لماذا اتيت ؟ و إلى متى هذا الوضع المزرى ؟

اقبع ساكناً فى موضعى متلمساً خلفى ما اعتقدت انه حائط, استندت بظهرى عليه قليلاً لأسمح لجسدى بقسط من الراحة...

موقفى يحتاج منى لتركيز شديد...ربما ادرك سبب الورطة التى انا فيها الآن..ولكن من اين يأتى التركيز وانا منهك و بالكاد استطيع التقاط انفاسى ؟

من اين يأتى التركيز و عقلى كهرٍ اجربٍ سقط فى بالوعه صرف...لا يمكن إلتقاطه و لا يمكن مساعدته...

اتذكر الثوان الاخيرة قبل الاتيان بى إلى هنا..لكن كلما حاولت تذكر هوية مختطفى, يقابلنى الخواء و العدم...لم اتمكن بالفعل من رؤية اى منهم...

اغلق عينى محاولاً ان انام...اهرب من ظلام إلى ظلام...

اللون الاسود لم يكن لونى المفضل, إنه عقاب عادل...

لماذا لا تحب سيد الألوان ؟ فلتغرق فى غياهبه القاتمة..

استمتع بصمته و سكونه...

فلتتشبع بالأسود...

فالأسود هو ملاذك الاخير..

و دنيتك الخالدة الآن...

****

اليوم الثانى

استيقظت فجأةً...

اعتقدت انى سأرى غرفة منزلى التى تساقط الطلاء من على جدرانها..و فراشى المتهالك بجواره بعض بقايا الاثاث التى لا يمكن تبين نوعها او فائدتها...ذاك الأثاث المصنوع من قطع خشبية بالية جمعها والدى بنفسه فى أوانٍ سابقٍ...عندما كان فى إمكانه أن يثبت الارفف بقبضته القوية و يحمل قطع الاثاث بنفسه ليضعها فى اماكنها...ثم أقعدته إصابة العمل...بتر الساق اليمنى...و شهاده ورقية تحمل كلمات تقدير بلا تقدير...ثم المعاش الهائل الذى انقذنا من الفقر...بضع جنيهات شهرياً !!

اعتقدت انى سأرى أبى و امى بجانبى, و اننى امارس حياتى المعتادة..ولكن يبدو ان للظلام القابع حولى رأى اخر...

فركت جبهتى محاولاً شحذ انتباهى و مقاومة ألام الصداع..جسدى ينبئنى أن نومى استمر لساعات طويلة..

احدى الفوائد الهامة لتلك الساعات ان بعض الآلام قد سكنت..اوجاع يدى و ظهرى قد خفتت قليلاً, بينما بدأ الصداع فى المرح داخل ردهات عقلى الموشك على الانفجار...

زاد على وجعى و صداعى..شعورى بالجوع...يبدو انه قد مر حوالى اليوم ونصف بدون ان يبتلع جوفى شيئاً سوى لعابى الجاف...لا شربة ماء..ولا حتى قطعه من الخبز...

لا يهمنى الآن معرفة هوية سجّانى..اريد فقط ان ينتبه احدهم لوجودى هنا...

فليعذبنى بقوله او فعله, ولكن اريد قطرات ماء تسرى لجوفى..فمى الجاف كصحارى العرب..

اتخيله قد فتح باب زنزانتى...ينظر لى بصمت مستفز...ثم يلقى بكوب ماء على الارضية, فأهرع ككلب مسعور ألهث نحو تلك القطرات المتساقطة احاول ان انهل منها قبل فسادها او ضياعها...

****

لم اكن مترفاً من قبل...و لم اكن ميسور الحال حتى..

لقد كنت بائساً منذ صغرى حتى مجيئى إلى هنا قسراً..كنت فقيراً ذليلاً منذ ان ولدتنى امى بمنزلنا القديم بأحد تلك المساكن العشوائية التى لا يعلم احد بوجودها من فرط كثرتها...

اعتقد والدى العامل البسيط جداً بأحد المصانع الخاصة جداً أن لا فائدة من إدخالى المدرسة...وهذا ليس بسبب ضعف قدرته المادية - و إن كانت سبباً من الاسباب - و لكنه لعدم اهتمامه بالتعليم من الاساس...

ما حاجته لابن يمكنه كتابه اسمه...ولا يمكنه التفريق بين ادوات النجارة ؟...

ما حاجته لابن يحفظ جداول الضرب حتى رقم عشرة..بينما لا يعلم مقاييس تروس السيارات ؟

كانت الورشة مقر عملى الاول فى حياتى, و اكرمنى الله برب عملٍ حنون كمن اختطفنى و ألقى بي فى تلك الزنزانة الضيقة...ذاك الرجل لم يتوان عن تعذيبى و اهانتى كلما امكنه ذلك..و حتى إذا لم يمكنه, فإنه يحاول و يبذل اقصى جهده فى سبيل الوصول لهدفه...كم هو متفان فى اداء عمله...

نسمع دائماً مقولة "التربية قبل التعليم" و نرى العديد ممن يؤمنون بها...لكن معلمى يؤمن بمقوله افضل.. إنها " استعمل التعذيب لإتقان التهذيب "...و انا بلا فخر كنت افضل فئران تجاربه...

الكى بالنيران ؟؟ هراء....

الضرب المبرح بأدوات حادة ؟؟ نوع من المزاح....

التجويع و إلقائى فى العراء البارد ؟؟ رياضات ممتعه....

هكذا كان معلمى الأسطة "عطوة"...و لذلك كان من البديهى أن اقتله !

****

نعم...من هو مثل ذلك الحيوان السادى يجب عليه أن يُقتل... لقد استمر تعذيبه لى اكثر من خمس شهور و احتملت ذلك...و امكنه ان يرشى والدى و يشترى صمته بتلك القروش القليلة التى يلقيها له يومياً, و اهاناته المتكررة لي بسبب او بدون سبب...إلى

ان اتى ذلك اليوم المشئوم..كنا وحدنا فى الورشة..و قد اقترب وقت العمل من الانتهاء و خلال ساعه سيمكننى العودة لبيتنا الضيق , لأتكوم وسط سبع اخوة و اخوات و احاول الظفر ببعض ساعات قليلة من النوم... جاء الاسطى "عطوة" و قد اعمته المخدرات التى اعتاد تناولها, و وجدته يقترب تجاهى و قد انتوى شراً...لم افهم فى البداية غرضه, ثم وجدته و قد حاول ان يعتدى على جسدى جنسياً..

لم ادر ما فعلت, و كذلك هو...لم يعلم كيف يُخرِج ذلك المفك الذى انغرس حتى مقبضه فى صدره...نظرة ذهول سببها المخدرات او ذلك المفك..لا اعلم..ثم سقوطه كجوال ملئ بالبطاطس على ارضيه الورشة...

لم أبك كأى طفل مازال فى العاشرة من عمره مثلى...الشهور الخمسة الماضية وقتها اعطتنى من الخبرات ما لم يقاسيها شاب عادى فى العشرينيات...

كان الهروب هو رد فعلى الوحيد على ما فعلت...

لم اكن اعلم قانون نيوتن وقتها...ولكن حالتى كانت افضل مثال لقوة رد الفعل التى تساوى قوة الفعل فى المقدار و تعاكسه فى الاتجاه...مثلما اخترق المفك صدر الأسطى عطوة, اخترقت انا الشوارع و الجدران راكضاً كمن تلاحقه الشياطين...

ظللت تائهاً متجولاً بالشوارع لأسابيع...تناولت بقايا الطعام الملقية بجوار الجدران, انتظرت اكثر من مرة احد زبائن المطاعم المتناثرة فى كل مكان, و بمجرد قيامه من موضعه اهرع نحو طبقه خاطفاً ما يمكننى خطفه قبل أن تصل يد صاحب المطعم لمؤخرة رأسى...

لم أعد لبيتنا ثانيةً...لم ار اسرتى او ازر منطقتى مرة اخرى..اعتقد ان والدى لم يأبه لذلك, ها قد نقصت الافواه الجائعه المطالب بإطعامها, إنها هبة من الرب الرحيم...

بعد مرور شهر على هروبى, كان لابد من ان اقابل "سعيد" ..

****

"سعيد" هو زعيم اطفال الشوارع بتلك المنطقة التى استقررت بها...

وقتها لم اعلم اسم المنطقة, و لم اهتم بذلك, لا اعلم جدوى معرفة اسم المنطقة إن لم تدل على ماهيتها ؟ اهل المنطقة لم يختاروا اسمها..فما قيمة الاسم إذا ضاع الهدف من التسمية ؟؟

وجودى الدائم بتلك المنطقة جذب انظار مساعدى "سعيد"...أغلبهم من الاطفال و المراهقين...بعضهم ذكور و بعضهم إناث,و كأى مجتمع منظم, للذكور مهام و للإناث مهام اكثر...

الذكر هو القائد و القوّاد...هو الحامى و مشرع القوانين...هو مقسم الاجور و منظم العبور..العبور من عالمهم السفلى إلى عالم النور فوق سطح الارض...

أما الإناث فهم العاملات...البائعات...الشحاذات..و إذا نضجن فهنّ العاهرات...ولا ضرر في ذلك من وجهه نظرهم, فالتواصل الجنسى بينهم أمر معتاد فى اوكارهم الدفينه تحت سراديب العاصمة...

اتذكر ذلك اليوم مهما ابتعد عنى فى سجلات الايام و الشهور و السنين...اتى إلى اثنان من معاونيه, احدهم ضخماً بليداً كالبغل و قد اقترب من نهاية مراهقته, و يبدو ان تلك الفترة اغدقت عليه بالنمو بكرمٍ حاتميٍ...اما الآخر فقد كان نحيلاً كقلم الرصاص, لكن تبدو على وجهه أمارات التحفز و العدوان..

فى كلمات قليلة خرجت من أفواه ادمنت تعاطى المواد المخدرة,و بعد تهديد سريع, اقتادونى إلى موضع وجود ذلك الزعيم المبجل...

منذ النظرة الاولى, ادركت مدى ذكائه...من وصل للزعامة فى ذلك السن المقارب للخامسة عشر تقريباً و بذلك الحجم الضئيل لابد أن يكون الذكاء من أهم صفاته... وجهه يحمل أثاراً حفرها اعداؤه فى سبيله لإثبات احقيته بالزعامه...يمسك ببقايا لفافة تبغ ظلت مشتعله بدون ان يقربها...

صراع من النظرات بينى و بينه دام لدقائق..ارسى بعدها قواعد دستوره الذى يطبقه على كل من ينضم إليهم...

إن اردت الانضمام, يجب ان تعمل..شحاذاً,بائعاً لأى شئ حتى و إن كان الجسد..ثم يتم توريد الربح كله للزعيم و بعدها يتم إعطاء الفرد نصيبه هذا إن تذكر الزعيم ذلك... و فى المقابل يمكنك المبيت بالبيت الكبير كما يسموه...

اكبر دليل على عقدة نقص و افتقاد للمسكن يقاسيها اولئك الاشقياء...

****

ظللت فى كنف "سعيد" لمده ست سنوات...امتهنت فيها الشحاذة لشهور تعلمت فيها اصول تلك الحرفة البائسة, تمكنت من الاحتيال على الآلاف..بل الملايين بإستعطافهم للحصول على بعض القروش او زوجاً من الجنيهات على اكبر تقدير...

اصبت فى مرة من المرات بجرح غائر فى ذراعى نتيجة الشجار مع احد الصبية اراد ان يقاسمنى سلطة منطقتى الموكل بها..فأصابنى بذلك الجرح بعدما استطعت ان افقأ عينه اليسرى...المضحك فى الامر ان اصابته افادته فى شحاذته اكثر مما افادنى جرح ذراعى...

قضيت فترة مراهقتى وسط عائلتى الجديدة من هؤلاء اللصوص و الشحاذين و العاهرات البائسات ذوى الوجوه الكالحه...و بالرغم من التأثير المعروف لفترة المراهقة على رغبات المراهقين, إلا إننى لم التفت لأى فتاة من الفتيات المتواجدات بالبيت الكبير..ليس خجلاً منّى او تعففاً...ولا خوفاً من "سعيد"..فكما ذكرت من قبل كانت الحياة الجنسية لهؤلاء الصبية فى اوج حريتها...و لكننى ابتعدت عنهن لأنهم لا يمكن ان يلتفت إليهم شخص عاقل...وحقاً اندهش من تخيل مستوى ادراك من يضاجعهن...ما المثير فى اجسادهم البالية و وجوههم الكالحة و بشراتهم القذرة التى ترتع فيها الحشرات و القمل ؟؟

لقد رأيت ما يمكن ان يطلق عليه لفظ "فتيات" بحق...هؤلاء البنات المرتديات افخم الملابس و احدث الازياء..ذوات الشعر الاصفر و الاحمر و الاسود الفاحم...عيونهن المرسومات بكحلٍ أحال العيون لبؤر سحرية تجذب الناظر نحوها لبحر فتنتها العميق...

هؤلاء كُنّ اهدافى المفضلة..اهرع نحوهن فى الشوارع و كأننى استجدي عطفهم ليعطونى ما تيسرمن مال بتأفف شديد...او اتجه نحو سياراتهم فى الإشارات المتوقفة و اتلذذ برؤية عيونهن الخاملة من خلف نوافذهم الزجاجية المغلقة....

متعتى الشديدة كانت فى لمس أجزاء من أيديهن أثناء اعطائى المال..او مناوشتهم بتحرش خاطف يطال جزءاً مثيراً من اجسادهم ثم الهروب كالبرق قبل ان يتمكّن من إدراك ما حدث بحقهن...لقد كنت مشاغباً بالفعل...

ربما كان شغبى هو السبب فى الإتيان بى لتلك الزنزانة ؟؟ لكنه ماضى و مرّ من سنين عديدة, فماذا اتى بى إلى هنا ؟؟

****

اليوم الثالث

جسدى ينبأنى ان يومين قد فاتا على عزلتى فى هذا المكان المقيت...

لا تسألنى كيف علمت ذلك..ولكن يبدو أن سجانى قد قرر أن يرفق بحالى اخيراً, فأرسل لى قطعاً من الخبز اليابس و كوب به سائل اعتقد انه ماء..و إن كنت لا املك ترف السؤال..فحتى و إن كان حمضاً كاوياً لشربته..ربما ساعدنى ذلك على ايقاف ظمأى الصارخ فى جوفى...

أثناء تجولى فى ذكرياتى السوداء, اشتممت رائحة نفاذة تنبعث فى المكان...

كانت الرائحة جديدة بالنسبة لى, لا تشبه اى رائحة مرت على انفى من قبل...و خلال ثوان وجدت نفسى و قد فقدت الوعى...

افقت بعدها بفترة لا ادرى كم استمرت, لأجد شيئاً اشبه بطبق بدائى يلامس جسدى.. و به كما اخبرتك...فتات خبز يابس و ذلك الكوب المملوء...

لم ادر بنفسى إلا و الكوب قد صار خاوياً كعقل الجاهل, و الفتات يرقد فى احشائى ينتظر عصارات المعدة تتلذذ بإعدامه بكل بطء وقسوة...

تلك الوجبة الفخمة طمأنتنى و نبهتنى لشيئين...

الاولى اكدت لى ظنونى بوجود من اختطفنى و سجننى بتلك الزنزانة, و أنه يراقبنى ويدرى بحالى السيئ...

أما الثانية اننى مازلت حياً و قد اظل كذلك ليوم اخر على الاقل....

****

عاد إلى ذهنى احداث ما يمكننى اعتباره البارحة...الرائحة النفاذة ثم فقدانى الوعى...أكان ذاك غازاً منوماً تم بثه داخل الزنزانه ؟ إذن من أين أتى ؟ و إلى أين ذهب ؟

كما أن الهواء لم يعد ثقيلاً كذى قبل...بالطبع مازال وجوده ضعيفاً, لكنى لا ابذل نفس الجهد السابق للتنفس...إذن فالهواء يأتى عليه وقت و يتجدد بشكل ما فى تلك الزنزانة...

الخيوط تكتمل فى يدى ولكنها مازالت متشابكة و معقدة لا يمكننى حلها...

ذلك الغاز...لم تكن رائحته معتادة بالنسبة لى...

لكنها ذكرتنى بأول مرة فى حياتى تنشقت فيها ابخرة المخدرات المنعشة...

وقتها كنت فى الرابعه عشر من عمرى, مرّ على وجودى مع "سعيد" و دولته المختفية نحو 3 سنوات و نصف أو اكثر ببعض شهور...

جاءنى خبر بجلسة يعقدها الزعيم مع مساعديه المقربين و الافراد القدامى فى مجتمعه...اعتبروا وجودى لتلك المدة الطويلة دليلاً كافياً على جدارتى بالدخول لتلك الدائرة القريبة من مراكز صنع القرار...

فى تلك الدائرة السرية, و على المائدة المستديرة للملك ارثر,جلس فرسانه و قد تمنطق كل منهم بأسلحته..منهم من يمسك بالمطواة الصدئة, و منهم من يلتف جنزيره الغليظ على كتفه...اغلبهم دون الثامنه عشر فيما عدا قائدهم الذى احتفل بوصوله للتاسعه عشر منذ ايام...

تدور قطع الحشيش الصغيرة بين كفوفهم الخشنة...قسوة الحياة جعلتهم كرجال بالغين, بينما من هم فى سنهم يستمتعون بأجمل سنوات عمرهم بصحبة اصدقائهم على المقاهى و فى النوادى -الرياضية منها و الليلية -...

وقتها وصلت إلى متناول يدى لفافة محشوة بالمخدر...و صاحبها ينصحنى بتدخينها إذا أردت أن انتشى مثلهم...

لم ارغب فى ذلك..أو على الاقل لم اهتم بتجربة المخدرات..فكم من زميل مهنة انتهت حياته بسبب تدخينه لتلك اللفافات المحشوة...أو شمه للأكياس المليئة بالغراء و الكلة... لكن فى تلك الجلسة المقدسة, إن رفضت هداياهم فقد يتسبب ذلك فى فقدانى لرأسى فى لمح البصر...

تناولت اللفافة متردداً..و منعاً للشك الذى بدأ يتسرب لعيون جارى الناعسة, التقطت نفساً منها...تفجر صدرى وبصقت اكثر من مرة, ثم بدأ الدخان فى فرض سيطرته على رئتيّ المسكينتين...

بعد ان انتهيت من اللفافة, كنت كالسوبرمان الذى يجوب الكرة الارضية فى ثانيتين... كنت ملاكاً يرفرف بأجنحته البيضاء المبهرة فوق السحب العالية...

ثم اهبط كنيزكٍ تائهٍ هبط مشتعلاً على سطح الارض, فأخترق تلك القشرة الهشة امام جسدى المتوهج, إلى أن اقبع بالدرك الاسفل من النار..الطبقة التاسعه من الجحيم كما وصفها الشاعر دانتى...

تسألنى كيف يدرك من هو مثلى, شاعراً عظيماً كـ"دانتى اليجيري" ؟

فأتذكر اننى لم اخبرك بما فعلته عندما كنت فى ايطاليا...و هذا حدث اخر يطول شرحه...ولكن ما المشكلة ؟؟ فحديث النفس هذا افضل من كثير من محاولاتى الفاشلة لسبر اغوار تلك الزنزانه اللعينة...

****

انتهت سنواتى الست فى رحاب الزعيم "سعيد" ملك ملوك الاراضى المختبئة, و سيد البيت الكبير بلا منازع...

انتهت بأحداث لا يمكن ربط وصفها باسم الزعيم مطلقاً...

بدأت المشكلة عندما اشتد بى الجوع فى يوم من الايام فى سنتى الخامسة...فاضطررت للبحث عما يمكننى تناوله من مخلفات القمامة..اندست يدى وسط كومة ضخمة من القمامة اعتلاها بعض من العلب الورقية التى رأيت عليها اسم احد المطاعم الشهيرة,فتوهمت أننى قد اجد ولو حتى كسرة خبز متحلله اتمتع بطعمها الشهى, ولكن بدلاً من الفوز بتلك الغنيمة المنتظرة, فاز بيدى كلبٌ لم اشعر بوجوده مختفياً وسط تلك الكومة الضخمة...

عقر ذلك الكلب يدى-التى نجحت بتخصليها من انيابه بصعوبه- و ترك فيها اثراً غائراً لأنيابه الحادة, بينما انهمر شلال من الدم من موضع العضة...هرب الوغد بعدما قذفته بلوح من الخشب ادمى ظهره و جانب رأسه, فهرع يعوى و يئن بعيداً, بينما هرعت انا الاخر لأعوى و أئن بإتجاه البيت الكبير...

وصلت للبيت خلال دقائق,فاستقبلنى احد معاونى "سعيد" ممن كانوا يسيئون معاملتى, فأجابنى وقتها بكل جفاء أنه لا علاج لديه لحالتى تلك, وأننى من الافضل ان اهرع لأحد الاطباء سيئي السمعه ممن يتعاملون مع "سعيد" لتوريد المخدرات و اقراص الهلوسة إليه مقابل حمايتهم من خصومهم و امدادهم بأعضاء الاطفال و افراد دولته بعد وفاتهم...

ذهبت بالفعل لذلك الطبيب واخبرته بما حدث, فأدخلنى عيادته سراً و اعطانى بعض الادوية و المسكنات التى ساعدتنى على الشفاء بعد ذلك..و امرنى بملازمة موضعى لعده ساعات ليتأكد من فاعلية العلاج...

ظللت فى تلك الغرفة حوالى الساعتين, جسدى ينتابه رعشة تسرى فى اوصالى, و قد بدأت اعراض الحمى فى الظهور..لم تكن تلك الاعراض بالخطورة التى تهدد حياتى, لكنها كانت مرهقة لجسدى الواهن بالفعل...

لا ادرى إن كنت اتخيل وقتها, أم ان ما سمعته كان صدقاً...

فلقد تناهى إلى اسماعى حديثاً مقتضباً بصوت خافت يدور بين ذلك الطبيب و بين مساعد الزعيم الذى امرنى بالمجئ للطبيب...لم اتمكن من سماع اغلب الجمل...لكن ما سمعته كان يؤكد أمراً واحداً...

الطبيب سيستغل حالتى السيئة وقد ينتزع كليتى اليمنى..و هذا بعلم المساعد و موافقته **!!**

****

انتابنى الهلع...كنت اعلم خطورة ما سيحدث...فلقد رأيت العديد ممن انتُزعت كليتهم من افراد البيت الكبير...كانوا كالموتى الاحياء..شاحبين مرهقين دائماً و الوهن يسيطر على ابدانهم النحيفة...كلا...لن اقبل بذلك...و لكن كيف الهروب و هم بالخارج يمنعونى من الفرار بسهولة ؟

بدأت فى الدقائق التالية ارسم خطة هروبى محاولاً اجبار ذاتى على التركيز بالرغم من الرعشة المستمرة و دفء حرارة جسدى...سأنتظر حتى يدخل الطبيب ثم ادفعه بعيداً كى يمكننى الخروج من باب الغرفة...

لكن هل سأستطيع بالفعل ان اجد القوة اللازمة لدفعه و الفرار نحو حريتى ؟؟ لا وقت للتفكير..صوت الطبيب يقترب من الغرفة..لقد حانت لحظة الحقيقة...

يدلف الطبيب نحو الغرفة و على وجهه ابتسامه مزيفة...لا يدرى انى اعلم ما بداخله...فليظل على جهله هذا حتى يحين مصيره...

- " يبدو أن حالتك قد بدأت فى التحسن بالفعل...أتدرى...إنك محظوظ بالفعل..فلقد اكتشفت فى خزانتى نوعاً فعالاً من المسكنات...انتظر..سأحقنك به الآن واعدك انك لن تشعر بأى تعب بعده..."

توجست و توتر بدنى بعد سماع تلك الكلمات...لابد أنه سيخدرنى ثم يسرق كليتى.. كلا..لن ينالها...

لن ينال قطعه منها حتى...

اخرج الطبيب محقناً رفيعاً من جيب ردائه الابيض, ثم وجدته يغرسها بقوة فى قارورة صغيرة بها سائل شبه شفاف, ثم اتجه نحوى فى هدوء و برود عجيبين...

انتظرت حتى صار واقفاً بجوارى و يده تستعد للامساك بذراعى...بادرته على قدر امكانى بدفع يده بعيداً..لكن ضعفى جعل تلك الحركة كمقاومة قطة لديناصور يحاول التهامها...

لم يتأثر بذلك...بل ازداد عنفاً و اتجه نحوى و الغضب يطل من عينيه..وقتها لم اجد امامى إلا مبضعاً معدنياً لمع بجانبى على المنضدة, تناولته فى سرعه و اطحت به تجاه الطبيب...

انغرس المبضع فى جانب رقبة الطبيب...كما انغرس المفك فى صدر الاسطى عطوة...إنها جريمتى الثانية...و ليست بالاخيرة...

فى المرة الاولى هرعت مسرعاً مبتعداً عن بيتى و منطقتى...و بالرغم من مرور خمس سنوات..مازالت ردود افعالى ثابتةً...وما اشبه اليوم بالبارحة !

****

قادتنى ساقى إلى منطقة اخرى بعيدة...بعيدة جداً عن متناول الزعيم "سعيد"...لكن للاسف يبدو ان تلك المنطقة الجديدة تدين بالولاء للزعيم "سعيد" ايضاً...ماهذا الزعيم العظيم ؟؟

أى عقلية يمتلكها هذا الوغد البائس ؟

إنه يفرض سلطانه كملاك الموت..

فى جميع الانحاء, و فى كل الاراضى..فوق السطح و اسفله...

المهم...تم اقتيادى قسراً حتى البيت الكبير الذى ظننت أنى قد فارقته للأبد...وجدت الزعيم قد وقف بجانبه ذلك المساعد المشئوم الذى لابد انه اخبره بما فعلت..و ربما زاده من الشعر بيتاً فذم و قبّح فى شخصى بقدر ما امكنه...

وضح الغضب على الزعيم..و لم احتج مخيلة واسعه لكى اتخيل ما سيصيبنى..

عقوبتى الوحيده هى الويل و الهلاك...

أصدر أمره النافذ بإلقائى فى قبو العذاب...

يا له من اسمٍ شاعرى...يمتلك الزعيم نفساً مبدعه بجانب ذكائه و قسوته الشديدتين...

كان الاسم على مسمى بالفعل..ذلك القبو هو الملاذ الاخير لكل المغضوب عليهم من قِبل زعيمنا الكبير...و فيه يتم التعذيب و التنكيل بلا هوادة فى فترة قوامها اسبوع...من نجى منها, اعتبره الزعيم قد نال عقابه, فلا يصير عقابه إن حدث واخطأ مرة اخرى بعدها إلا الموت...

اما من لم ينج من القبو..فالله رحيم به و كتب له الوفاة حمايةً له مما كان سيحدث له فى باقى ايام ذلك الاسبوع الاسود....

هل أنا الآن فى قبو العذاب مرة اخرى ؟؟

بعد كل تلك السنوات أعود إلى ذلك القبو الذى قاسيت فيه من الاهوال الواناً و اشكالاً لم تخطر ببالى من قبل ؟

****

يبدو اننى كنت من المغضوب عليهم من الله..فلم ينزل علىّ رحمته, و لم يهدنى بسكينته...و سطر بقلمه السماوى فى سجل حياتى ان انجو بمعجزة إلهية من ذلك الاسبوع...

وقتها لم يدارِ معذبى دهشته و غيظه, فلقد كنت اول ناج منذ اربع سنوات, و يبدو أن غيظه بتحطيمى لرقمه القياسى كاد ان يكون السبب فى وفاتى وقتها بالفعل..لولا علمه بالعقاب الشديد الذى قد يناله من الزعيم إن علم بوفاتى رغم نجاتى بعد المهلة,فللزعيم اوامر مشدده بالعفو الملكى بمجرد مرور اخر ثوانى الاسبوع !

بعدها مرّ شهر حتى تعافى بدنى من ألامه و جراحه, ثم اعادنى الزعيم مرة اخرى للشارع لاستكمال مهنتى فى جوب الشوارع, بحثاً عن الرزق الذى يستقر بجيبه فى نهاية اليوم...

كانت تلك مرِحلة جديدة بالنسبة لى,فنظراً لحالتى البدنية التى لم تستقر بعد..استخدمنى الزعيم كعامل جاذب لانتباه المارة, بينما يقوم أحد زملائى بنشل محافظهم او سرقة مقتنياتهم الهامة فى سرعه و خفة يحسده عليها امهر اللصوص الكبار...

كان وجود ذلك النشال معى سلاحاً ذو حدين, فالرزق يزيد بتلك الطريقة مما يجلب إلينا مزيداً من الرضا النسبى لدى كبار حاشية الزعيم...و لكنه فى نفس الوقت يمنعنى من الهروب بعيداً...

نعم..فبعد نجاتى من تجربة القبو, جاءنى ما يشبه الالهام الإلهى أن تلك النجاة كانت سبباً لهروبى بعيداً عن ذلك العالم القذر الموحش...

ظللت لأسابيع افكر فى خطة تساعدنى على الهرب...و استكمالاً لمسلسل العون الإلهى المفاجئ بالنسبة لى...امسك بعض ضباط الشرطة بزميلى النشال فى احدى المرات, بينما امكننى الافلات من نظراتهم و تنحيت جانباً بأحد الحوارى الضيقة..ما إن التقطت انفاسى حتى اطلقتها مرة اخرى لتدفعنى نحو الامام..نحو الحرية بعيداً عن قبضة الزعيم الابدى...وفى تلك المرة نجحت فعلاً فى الافلات...

****

اليوم الرابع

حتى الآن لم يأت الطعام إلا مرتان...

مرة كانت كسرة الخبز اليابس و كوب الماء بجانبه...و المرة الاخرى جاءت منذ قليل و كانت كسابقتها, وإن زاد تلك المرة قطعه من الجبن الابيض..او ما اعتقد انه كذلك فى ذلك الظلام الدامس...

و كالمرة الاولى ايضاً...انبعثت رائحة الغاز الذى تأكدت انه غاز منوم, فانكفأ رأسى غافياً بعد تنفسى إياه, ثم استيقظت بعدها بزمن ما لأجد الوجبة بجانبى...كأنها تجربة "بافلوف" للإنعكاس الشرطى...رائحة الغاز معناها وصول الطعام...

لن أعلق على دهشتك بخصوص معرفتى - وانا الجاهل - بتجربة "بافلوف"...لقد اخبرتك من قبل ان رحلتى لإيطاليا اكسبتنى معرفة واسعه و خبرة لا يمكن الاستهانة بها اضفتها لخبراتى العديدة...

ماذا تقول؟؟

لم احك كيف ذهبت لإيطاليا ؟

عفواً يا عزيزي..ربما كان لهذا الغاز -الذى اتمنى ادمان استنشاقه - أثراً جانبياً على ذاكرتى...

حسناً...سأكمل لك...

****

ماذا حدث بعد أن هربت من سلطان الملك العظيم "سعيد" ؟

لقد وصلت إلى منطقة نائية تبتعد عن منطقة نفوذ "سعيد" بنحو نصف يوم ركضاً و تسللاً..لكن لم اكتف بذلك..اكملت نصف اليوم التالى ابتعاداً و توغلاً فى تلك المنطقة النائية لأضمن نفياً تاماً لنفسى عن دولة "سعيد" البائسة بشعبها الاكثر بؤساً...

فى تلك المنطقة افترشت العراء, و بدأت فى البحث عن مصدرى للطعام و الشراب... السكان قليلون و المنطقة هادئة..

يبدو على هيئة السكان انهم من طبقة افضل من جميع الطبقات الكادحة التى اعتدت على رؤيتها...

المبانى اكثر جودةً مما رأيت من مبانى فى حياتى قبل ذلك...

ظللت ليومين هائماً على وجهى إلى ان وصلت بالصدفة لبناية وجدت بمدخلها الرخامى رجلاً كهلاً اسمر اللون يبدو على هيئته انه حارس لتلك البناية, يهتف صارخاً :

- "حرامى ...حرامى"

نظرت بسرعه لأجد امامه ببعض الامتار شاباً يهرول ,و بحوذته شنطة سوداء قد احتضنها بيديه الاثنتين...

لحقت بالشاب و قمت بعرقلته فسقطت الشنطة من يده و سقط جسده بقوة بجانبها..حاول التقاطها ولكنى سبقته إليها...نظر إلى مستعداً لجذبها منى, ولكن بعد رؤيته لباقى السكان و قد بدأوا فى التوافد نحونا و معهم ذلك الحارس, بادر بالفرار مفضلاً انقاذ نفسه من الضربات التى قد يكيلها له ذلك الجمع الغفير...

وصل السكان إلىّ و استلموا منى الشنطة, و ألسنتهم تلهج بالشكر و الثناء...شعرت بالخجل, فلأول مرة فى حياتى اشعر بالتقدير...طيلة حياتى اعتدت السب و الذم والاهانة و التعذيب, حتى صارت جميع المشاعر بالنسبة لى انعكاساً و تنويعاً على تلك التصرفات, و كأن السلوكيات الحسنة قد محاها المجتمع من حولى...

اصرّ الحارس على دعوتى لكوب من الشاي الساخن فى غرفته..لم استطع الرفض, فالجوع كان يطرق ابواب معدتى, كما أن الطقس كان مائلاً قليلاً للبرودة, فكانت تلك الدعوة خير الحلول لمشكلاتى وقتها..

على نيران السبرتاية الهادئة, صنع ذلك الحارس افضل كوب شاي تذوقته فى حياتى.. تسامرنا قليلاً و اخبرنى عن اصله النوبى ,و مجيئه للعمل كحارس بناية فى تلك المنطقة منذ حوالى عشر سنوات..توفت زوجته منذ خمس سنوات بعد إصابتها بمرض جعلها طريحة الفراش,و رحلت بناته الثلاث مع ازواجهن منذ سنتين لثلاث محافظات مختلفة, و كل فترة تأتى احداهن للسؤال عنه وقضاء بعض الايام معه ثم العودة لديارهن مرة اخرى..

سألنى عن حكايتى و أصلى...لم ادر بما اجيبه, فاقتضبت فى حديثى قليلاً مع اضافة بعض الحقائق التى نسجها خيالى لأخرج فى النهاية بقصة معقولة نسبياً لا تمدح فى شخصى كثيراً ولا تذم ايضاً..ومفادها أنى بلا عائلة تضمنى او بيت يأوينى, وهذا هو الحق فيما قلته وقتها...

انتهى حوارنا بتقديمه عرضاً لا يمكننى رفضه...عرضاً بالعمل معه كمساعد للحارس, اتولى شئون البناية و بعض البنايات المجاورة, و اكون مسئولاً عن الاعمال الصعبة التى صار جسده الكهل غير قادر على ادائها, بينما انا مازلت فى بداية شبابى ممتلئاً بفورة الصحة والبنيان السليم...

حينئذ كيف لا يمكننى ان اجيبه بالموافقة ؟؟

****

بدأ عم "اسماعيل" - ذاك كان اسم حارس البناية - فى إعطائى بعض المهام السهلة, كبداية لعملى معه كمساعد حارس...حمل الحقائب الخاصة بسكان البناية, او شراء بعض مشتروات البقالة الخاصة ببعض السكان, و غيرها من المهام المعتادة حتى أثبتّ كفائتى له, و تأكد من أمانتى,فصار يأتمننى على بعض معاملاته المالية, فأحسنت التعامل مع ذلك الامر ايضاً إلى أن وصلت لديه لمكانه عظيمة و كأننى ذراعه اليمنى بالفعل..

انتهى شهرى السابع مع عم "إسماعيل" وقد صرت كما قلت ذراعه الايمن...

وطدت علاقاتى بقاطني البناية...أغلبهم امتازوا بالاحترام الشديد و حسن معاملتى, و إن كانوا كالمصابين بإنفصام الشخصية...

ففى الدور الاول يقطن الاستاذ "عصام" الموظف الشاب و زوجته.. زوجان هادئان وديعان مازالا فى بداية سنوات زواجهما, تراهم فتظن انك قد رأيت زوجاً من الطيور المغردة...اعتبرتهم من افضل سكان البناية,فطوال فترتى هنا لم ار منهم اى سوء...

إلى ان حدث أمر ما , أظنه وفاة والدة زوجة الاستاذ "عصام" او احد اقاربها, فاضطرت السيدة ان ترافق والدها لمده أسبوع قضاه زوجها وحيداً بالشقة...

يومياً بمجرد ان تدق الساعه معلنةً انتصاف الليل, استمع لأصداء خطوات حذرة للاستاذ "عصام" على درجات سلم البناية و برفقته إحدى النسوة..ربما كانت اخته او قريبته..فلأبتعد عن سوء الظن فإن بعض الظن إثم...

و عادت زوجته بعد الاسبوع بدون أن تكتشف ما حدث, و ظل الأمر طى الكتمان...أو هكذا تخيل الأستاذ "عصام", ولكن سنواتى فى كنف الزعيم "سعيد" علمتنى أن استغل مواقف الحياة...

ما حدث قد يمكننى إستغلاله كورقة ضغط إذا اضطرتنى الظروف لذلك...

أما فى الدور الثانى فيقطن الدكتور "امجد"...طالب فى السنة الخامسة بكلية الطب... يسكن وحيداً فى الشقة بعد اغترابه عن محافظته...الفتى لا غبار عليه بحق, ولكنك إذا دققت النظر قليلاً, ربما تجد بعض الغبار الابيض و قد تناثر على اكمام معطفه... غبار ناتج عن تكوينه للمخدرات منزلية الصنع..مصروفات كلية الطب قاسية بالفعل, والاتجار بالمخدرات حل مربح و عملى للغاية إذا اردت القضاء على أى أزمة مالية تواجهك...

الدور الثالث لم يُسكن بعد, و يليه الدور الرابع الذى يقطن به السيد "إيهاب" المدير بأحد شركات الاستيراد و التصدير التى تتميز بإستيراد أى شئ و تصدير اللاشئ..يسكن مع أسرته المكونة من زوجته ربة المنزل الوقورة و ابنائه الثلاث, يمتاز بعلاقاته المتعددة بحكم عمله التجارى, و من اكثر سكان المنزل احتراماً لى و لعم "إسماعيل"...معاقرة الخمر إحدى عيوبه, لكن حتى الآن لم يُحدِث أى مشاكل بسبب تلك العادة المذمومة....

أما باقى السكان فلم تتوطد علاقتى بهم او ربما لم اهتم بذلك, فأغلبهم إما كانوا مستأجرين غير دائمين, او كانوا مقلّين فى ظهورهم و سكنهم بتلك الشقق...

عملى مع عم "إسماعيل" و تعاملى مع هؤلاء السكان بمختلف شخصياتهم كان بالفعل بداية جديدة لحياتى..شعرت و كأن ما فات من أسى و حرمان و تشرد وكأنها حياة سابقة, و أنى قد وُلدت من جديد على تلك الارض الجديدة...

بدأ التغيير من داخلى اولاً, فلقد وجدت أنه لابد لى من التكيف مع تلك الظروف التى اواجهها, لابد لى من اخلاق حسنة و طاعه و لباقة اعامل بها هؤلاء السادة...لا مكان لحرب الشوارع او سلوكيات حياة الصعلكة التى اعتدتها سابقاً...

فى البداية كان التظاهر باللطف و الهدوء صعباً بالفعل, و مع مرور الوقت صار الموضوع ابسط ولا تكلف فيه...البيئة من حولى بالفعل تساعدنى على التغير للأفضل...

ثم بعدها أتى التغيير ممن حولى عندما استشعروا حسن اخلاقى والذى ظنوه فطرتى منذ الصغر...

فعرض علىّ عم إسماعيل تعليمى مبادئ الكتابة و القراءة عندما ادرك جهلى,و سمح لى بعد مرور اول سنة لى معه أن اقتطع جزءاً من البقشيش لصالحى, وبين الحين والاخر,ساعدنى بعض السكان و على رأسهم الاستاذ "إيهاب" بمنحى بعض ملابسهم المستعملة التى قد تناسب قياسى...

لقد ابتسم القدر لى اخيراً بعد عذاب طويل....

****

اليوم الخامس

لقد كنت مغفلاً...لمرتين...

الاولى التى ظننت فيها ان الطعام هنا صار شبه يومياً...كلا..فها قد مر الامس وانا فى دوامة ذكرياتى البائسة, فلم اشتم رائحة الغاز الذى صرت اتمنى إدمانه, ولا لمست قطعه الخبز المعتادة و شربة الماء....

إن سجانى يلهو بى قليلاً...لا مشكلة, فلقد اعتدت ذلك..

هناك بيت من الشعر معروف لدينا جميعاً ,وإن كان اغلبنا لا يدرى قائله - وانا منهم - هذا البيت يقول " ما كل ما يتمنى المرء يدركه...تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن".. أصفق انبهاراً لعبقرية هذا الشاعر..لقد اصاب كبد الحقيقة بالفعل...كنت مغفلاً للمرة الثانية عندما تخيلت استمرار الهناء و استقرار الحال بين يدى عم "إسماعيل"..

وصلت للسنة الثالثة كمساعد لعم "إسماعيل"..تعلمت القراءة و الكتابة, و ازدادت خبراتى كثيراً بالإستفادة من خبرات عم "إسماعيل" و حكاياته أثناء تسامره معى, احتفظ بمبلغ من المال يكفى قضاء احتياجاتى لعام او اثنين على الأكثر..وعدنى الأستاذ "إيهاب" بأنه سيحاول تدبير وظيفة بسيطة لى بإحدى المصالح أو الشركات الحكومية...اغلب الدلائل تشير لإستقرارى فى تلك البقعه الهادئة من الارض..

و لكن...

كالمعتاد تأتى الكوارث بعد كلمة لكن..و فعلاً..جاء أجل عم "إسماعيل" و ذهب للقاء ربه الكريم...

صرت وحيداً, وهو شئ بالمناسبة لم يكن غريباً علىّ...

طيلة حياتى كنت وحيداً و إن اكتظ المكان حولى بالناس...كنت وحيداً وسط عائلتى وإخوتى..وحيداً فى الورشة بين زملائى من الاطفال..وحيداً فى دولة "سعيد"..لم اتمكن من التعامل مع احد بسهولة, و اجتنبنى الاخرون كمريض بالجذام...و بعدما بدأت فى اعتياد الألفة و حسن المعاملة فى تلك السنوات الثلاث, عدت للوحدة مرة أخرى كحبيب هجر حبيبته ثم أتاها بعد طول غياب...

توفى عم "إسماعيل" الكهل الطيب و تركنى اكمل المسيرة من بعده...أتى إلىّ الأستاذ "إيهاب" بعد الوفاة بأسبوع, و ناقشنى فيما ارغب فيه..اخبرته بموافقتى على الحلول موضع عم "إسماعيل"...حاولت ان ألفت انتباهه لحديثه السابق عن الوظيفة الحكومية..ولكننى تحرجت من ذلك الفعل...و لعله قد نسى ذلك الحديث فلم ارغب فى التطفل على ذاكرته وقتها...

استمر عملى بالبناية لمده شهرين اخرين..صرت فيهم المسئول الاول عن نظافة البناية و تلبية مطالب سكانها و حماية سياراتهم وما شابه ذلك...

صار ريع تلك الاعمال كاملاً إلى حافظة نقودى, بلا اضطرارى لإنتظار حصتى بعد اقتطاع عم "إسماعيل" لنسبته, فتكونت لديّ مدخراتٍ تمكننى من استئجار شقة صغيرة إذا أردت ترك تلك المهنة.. ولكنى لم ارد ترك تلك البناية..حقيقةً...فلقد شعرت بقيمة الاستقرار هنا بالفعل...

وكالعاده اكتشف فى نفسى التفاؤل الزائد ,وأننى سأظل ذلك المغفل طوال عمرى مهما لقننى الزمن من دروس و عبر...

****

استغل الدكتور "أمجد" حسن علاقته بى, فأراد إرسالى لشراء بعض المواد الطبية والكيماوية من احد المناطق الشعبية القديمة بوسط العاصمة...

توجست خيفةً من هذا الطلب, فربما كانت تلك المواد جزءاً من تركيبه للمخدرات, و كان ذلك سبباً فى تعرضى للسجن من قبل الشرطة...هو لم يدر بعلمى بحقيقة عمله السرى , و الذى أكد عم "إسماعيل" حقيقته اكثر من مرة خلال احاديثه الطويلة معى...و لم ارغب فى كشف معرفتى له بذلك الأمر, فوافقت على مضض على ذلك الطلب,و دعائي سراً لا ينقطع ان لا يكتشف أمرى احد...

استقللت الحافلة بإتجاه ذاك السوق الشعبى...الطريق مزدحم, و السيارات من فرط سخونة محركاتها التصقت سوياً كوحدات متشابكة فى نسيج مترابط...ألعن الدكتور "أمجد" فى سرى...فطوال تلك السنوات الثلاث لم اضطر للابتعاد كثيراً عن منطقتنا مثلما فعلت فى تلك المهمة العاجلة...

وصلت إلى المنطقة المطلوبة بعد عناء و تعبٍ شديدين, و استطعت شراء اغلب الأدوات, فلقد احتاج التاجر التأكد من مواصفات معينة لأداة او اثنتين ممن كانوا بتلك القائمة الورقية التى كتبها لى الدكتور "أمجد"...بالطبع لم يمكننى إخبار التاجر بالمواصفات المطلوبة لجهلى بتلك الامور الطبية, فلم استطع شرائهم وقتها..سيستلزم الامر منى تكرار تلك الرحلة الاسطورية مرة اخرى...

تباً لك يا دكتور "امجد"..

اثناء عودتى لإستقلال نفس الحافلة التى تأخذنى لمنطقتى النائية مرة اخرى...قابلت بالصدفة احد الشحاذين الهائمين على وجوههم..يا إلهى..هذا الفتى قد زاملنى لفترة فى ظل الزعيم "سعيد"...وددت لو لم يرانى, ولكنه بالفعل رآنى..و يبدو على وجهه أنه تعرفنى برغم المدة الطويلة التى ابتعدت فيها عن دولتهم المشئومة تلك..

انقذنى ظهور الحافلة بدخول مسرحى للمحطة, فاستقللتها بسرعه محاولاً التخفى بين الركاب مستغلاً الزحام الشديد وتدافعهم بكل وحشية على مقاعد الحافلة كالضوارى إذا وجدوا فريستهم...

استطعت الهروب من قبضة الماضى الاسود, و لكن لم يكن ذلك نهاية الامر...

****

حمداً لله لم يطلب الدكتور"أمجد" أن اعيد رحلتى مرة ثانية, و اكتفى بما احضرته فى رضا خالطه بعض الضيق..تباً له للمرة الثالثة ولألف مرة...لن اخاطر بالاقتراب من سلطان "سعيد"...

و لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن بإرادتى..فلقد امتد ذلك السلطان إلى عقر دارى بنفسه...

يبدو ان ذلك الزميل اللعين قد نقل خبر رؤيتى لقادته...و تحرك فى نفسهم الثأر القديم, فبدأوا فى التحرك يميناً و يساراً لتشمم آثارى...و تذكر ذاك الفتى هيئة الحافلة التى هربت فيها, فأرشدتهم إلى الاماكن المحتملة لتواجدى...

لا ادرى كيف,ولكنى رأيت فى منطقتنا للمرة الاولى منذ سنوات, شحاذةً فى سن المراهقة, تتوسل السيدات فى بؤس و تطأطئ برأسها الصغير نحو الارض طلباً لبعض العملات...

لم انخدع بالهيئة البسيطة لتلك الفتاة..إنها إحدى جواسيس ذلك الزعيم القذر...تذكرت رؤيتها بالبيت الكبير لأكثر من مرة مسبقاً..و بنسبة كبيرة تتذكرنى أيضاً..فما فعلته مع "سعيد" و مساعده ربما جعلنى فى مصاف الاساطير الخالدة التى يتم تدوينها فى تاريخ دولة "سعيد" الخفية لأصبح بعد عقابى عبرة لمن لا يعتبر..

لم تكتف تلك الفتاة بالظهور للمرة الاولى فقط..بل داومت على ذلك الفعل نحو خمسة ايام متتالية...إنها فى مهمة محددة لا يمكن التراجع عنها...ائتونى بهذا الخائن لأقضم رقبته بأسنانى و انهل من دمائه فى كوبى المعدنى المتسخ....

دب الرعب فى قلبى..لابد من إيجاد حل لتلك المعضلة...هرعت إلى الأستاذ "إيهاب" طلباً للنجدة...حيث لم اجد افضل منه إذا اختص الامر بطلب المساعده..

اختلقت قصة مقتضبة عن أصلى الذى يرجع إلى احدى المحافظات القبلية, وعن الثأر الذى يطاردنى طلباً لرأسى...لم اكذب كثيراً, فأنا فعلاً هارب من ثأرٍ يرغب فى الدم أيما رغبةً...دمائى أنا ولا احد غيرى !

****

أين وجبة اليوم ؟؟ الجوع اشتد على معدتى...و ظنى بدوام و يومية الطعام جعلنى اشد جوعاً من ذى قبل...

****

أراك تتذمر من انقطاع سردى لذكرياتى بحثاً عن شهوات لا طائل منها !!

انت على حق...من يفكر فى الطعام و الماء من اجل بقائه حياً هو بالتأكيد مجنون مثلى...

الجوع جعلنى انسى أين توقفت فى ذلك النهر المندفع...

نعم..لقد كنت أحادث الأستاذ "إيهاب" عن قصتى الخيالية المستندة إلى أحداث واقعية - كما يقولون فى الافلام السينيمائية المملة أملاً فى جذب جمهورٍ إضافى -...

صدقنى الأستاذ "إيهاب" بطيبته المعهودة فوعدنى بالرد السريع,و بالفعل جاءنى بعدها فى اليوم التالى و اخبرنى بخبر أسعدنى كثيراً وقتها...

كان حلاً سحرياً لإنهاء جميع مشاكلى مع "سعيد" وأعوانه الباحثين عن الانتقام....

شركة الاستيراد و التصدير الذى يديرها لديها بعض العلاقات الوثيقة بأحد التجار الكبار بمحافظة الاسكندرية, و فى نفس الوقت ذلك التاجر لديه علاقاته ببعض البحارة و اصحاب السفن الصغيرة..سيحاول الاستاذ "إيهاب" إجراء بعض الاتصالات لكى يدبر لى وسيلة للهروب عن طريق البحر لإحدى دول البحر المتوسط بحثاً عن الرزق...

****

لم يأت ببالى ان يمتد هروبى لخارج حدود مصر...اكثر ما خطر ببالى وقتها أننى سأختبئ بإحدى أحياء الاسكندرية او تلك القرى المتناثرة حولها و اكتفى بذلك الموضع فى صمت...لكن ان تصل الامور للهجرة ؟؟ هذا من اعجب ما حدث لى طوال حياتى...

ساعدنى على تحديد موقفى عده اسباب مقنعه...تكرارى لرؤية تلك الشحاذة التى اكملت اسبوعاً كاملاً بدون ان امكنها من رؤيتى, و خوفى من انتقام "سعيد" الهائل...لن اتمكن من النجاة من قبو العذاب تلك المرة...حسناً..إنها الهجرة ولا شئ سواها...

استفسرت عن المبلغ المطلوب لإتمام تلك العملية فوجدته اكثر ببضع مئات من الجنيهات مما ادخرته...استطاع الأستاذ "إيهاب" -أكرمه الله- ان يتفاوض بشأن تلك الزيادة و ان يحذفها من المبلغ المطلوب...إذن..صار المال جاهزاً للسفر..

استقللت السيارة المؤدية للإسكندرية...السائق ينهب الطريق نهباً بسرعه جنونية, و كأنه يشاركنى قلقى و خوفى ممن يطاردوننى...

و هاهى عروس البحر المتوسط تفتح ذراعيها لهارب خائف قادم إلى المجهول...

****

اليوم السادس

وصلت إلى...

انتظر...هل تشم ما أظن إننى اشمه ؟؟

نعم...إنها رائحة الغاز...استنشقها بأقصى ما يمكننى من قوة...

الطعام قادم...مرحى..مرحى..

لماذا لا يخبرنى سجانى بمواعيده ,و سيجدنى فاقداً للوعى إن كان ذلك سبباً لجلب الطعام...

عقلى يغيب عن الوعى و رأسى يدور ليقع على الارضيه الصلبة...

ظلام...

****

بمجرد عودة وعيي, امسكت بقطعه الخبز لألقى بها إلى جوفى و افرغت بعدها كوب الماء...ولكن ما هذا !!
توجد قطعه من اللحم ايضاً بالطبق...إنه يوم سعد بالتأكيد...

أتُرى قد صرت مثيراً لشفقة سجانى فأنعم علىّ بتلك المنحة العظيمة ؟؟

يا سجانى, سأدعو الله أن ينعم عليك بالراحة و الهناء والسرور, و ان يبعد عنك الفاسدين و ذوى الضمائر الميتة و مَن هم مثلى من حثالة البشر...

اتناول قطعه اللحم و كأننى امسك بجوهرة لامعةٍ يبدد بريقها الظلام من حولى...اقربها إلى فمى,فتلمسها شفتاى وتلتحم بها فى عناق دام لدقائق...تستقبلها اسنانى فتطحنها لآلاف القطع التى يلوكها لسانى بأقصى لذة...كعاشقين تضاجعا فى الظلام بعيداً عن عيون المتلصصين...

يا رباه...أى متعه تلك التى قضيت فيها الدقائق الماضية ؟!

إننى راضٍ تماماً اليوم, ولذلك سأكمل حديثى و قد امتلأ جوفى و شبعت تماماً بتلك الوجبة العامرة...

اعرنى إنتباهك الآن, فالقادم سيفعل بك الافاعيل...

****

وصلت إلى الاسكندرية بسلام...

و بعد وصولى لأحد ميادينها الرئيسية, بدأت فى سؤال من يمكنه أن استدل منه عن العنوان الذى ارغب فى الوصول إليه...

يمتاز اغلب من عاشرتهم فى الاسكندرية بالمحبة الصادقة و الرغبة الفطرية فى المساعدة, و ظهر لى ذلك فى موقفين تعرضت لهما باليوم الاول لى على تلك الارض المباركة...

ساعدنى من سألتهم عن عنوان التاجر الذى يجب ان اقابله, و تطوع البعض بوصف المكان بالتفصيل مع إدعائه معرفته بذلك التاجر...و إن كان إدعائه هذا صادقاً بعد ذلك, حيث وجدت ذلك التاجر المدعو بـ"الحاج الصفتى " اشهر من نار على علم بمنطقة "الانفوشى"...

الموقف الآخر الذى رمى بحب الاسكندرية و سكانها فى قلبى, أنه بعد وصولى للعنوان المراد اخيراً, وجدت أن نقودى لم تكن موجودة بحقيبة ملابسى !!

لا اعلم أين ذهبت..أسُرقت ام ضاعت ام سقطت فى الطريق, وجدت جيب الحقيبة شبه مفتوحٍ, و لم اتذكر ما إذا كنت اغلقته ام قد سهوت بالفعل و تركته كذلك فضاع منه ما فيه مع الهواء...

تباً..تباً...ما الحل الآن و سائق الاجرة ينتظر رزقه ؟؟

****

بدا التبرم واضحاً على وجه السائق الذى كاد يقترب من الوصول للحقيقة المخبأة..إننى مفلس ولا املك قرشاً واحداً !!

تأكد السائق من ظنونه عندما لاحظ تكوّم قطرات العرق البارد على جبينى...امسك بتلابيبى صارخاً بأعلى صوته طالباً لحقه المشروع..لم يخلصنى من قبضتيه إلا

وصول معاونى المعلم " الصفتى " الذين استفسروا و علموا مختصر الحادثة منى...فور أن علموا بهويتى تطوع أحدهم لدفع الجنيهات المعدودة تكلفة الاجرة..لم يوقفهم رفضى الخجول و لا اعتراضى بشكل ضعيف..لقد اتت نجدتهم إلىّ كالعون الإلهى من السماء...لولاهم لبدأ السائق فى كيل اللكمات لوجهى وصدرى...

اقتادونى مرحبين بوجوههم الناضحة بالبشاشة و الكرم..إلى أن وصلت للحاج "الصفتى"..

وجدته جالساً فى تواضع على عرشه البسيط خلف مكتبه الخشبى الموشى بزخارف بديعه...فى العقد السادس من عمره,ذو جسم مكتنز قليلاً و شارب رفيع صغير, اعطاه مظهراً طفولياً بعض الشئ, مع مسحة من الشعر الابيض اضفت عليه لمسة من الحنان الابوى...

احببت هذا الرجل منذ ان رأيته لأول مرة, و زاد حبى له بعد ان احسن معاملتى فى الفترة القصيرة التى قضيتها معه...

اكرم ضيافتى و بدأ فى تجاذب اطراف الحديث معى, مستفسراً منى عن صحة الأستاذ "إيهاب" الذى اسهب فى مدحه و الثناء عليه, و مانحاً إياى النصائح التى تمكننى من التعامل مع اهل المنطقة...

اعجبتنى لهجته السكندرية المميزة, فعقبت على ذلك مازحاً وقد شعرت بأن الحواجز قد ازيلت من بيننا..فضحك قليلاً و اردف :

- " هنا اللهجة بتاعتنا محافظين عليها من زمان...الناس تروح و تيجى علينا ياما, واحنا منغيرش كلامنا أبداً "

ثم رفع عقيرته صائحاً :

- " يا ولا...هات اتنين فول و اتنين فلافل و واحد شيّ للاستاذ هنا"

حاولت إثناءه عن كرمه الشديد بينما اصرّ واقسم بأشد القسم أن يكرم ضيافتى, فلقد جئته من قِبل احبابه من العاصمة...

تجالسنا حتى صلاة العصر الذى اخذنى معه لنصليها بمسجد "المرسى أبو العباس" و اصطحب معنا باقى معاونيه, ثم تطوع فى عودتنا بشرح بعض التفاصيل المتعلقة بالمنطقة كأنه مرشد سياحى يكشف عن خبايا بلده للسياح المنبهرين...

- " حى الانفوشى يا استاذ احنا نسموه حى بحرى, و ناس تانيه تقول عليه حى الجمرك..و ناس تالته الانفوشى...مش مشكلة الاسم..كلها اسماء حلوة و زى الفل "

يشير وراء ظهره قائلاً :

- " دا جامع سي المرسى ابو العباس..شي لله يا سيدنا...هو بركتنا و اللى متوسطلنا عند ربنا يكرمنا ف اكل عيشنا...و تلاقى ضريح ابو الدردار عندنا برضو...بس مفيش زى سيدنا المرسى...شي لله يا سيدنا..الف رحمة و نور عليك"

اكمل كلامه باستمتاع شديد, فأردف:

- "هنا تلاقى فينا عاداتنا القديمة...حتت ياما ف اسكندرية خلاص بقت ولا فارقة عنكو ف مصر...لكن هنا اصل الاسكندرية و حلاوتها كلها...عندنا ع البحر ناحية راس التين شوية ورش بتاعت سفن و لانشات...بس شوية و تروح..محدش باصصلها خلاص.. هنا تلاقي صيد السمك اكتر من اى مكان تانى..يروح الواحد مننا ع الصبح يرمى صنارته جمب قايتباى و يستنى رزقه من الكريم الرزاق...ارزقنا يارب انتا السميع البصير "

ثم يتمتم بما اعتقد انه ادعية صغيرة بصوت خافت بينما تتناول اصابعه الصغيرة حبات المسبحة الزرقاء فى تأنٍ...

اسعدنى الوقت الذى قضيته مع الحاج الصفتى..شخصية جديرة بالمحبة و الاحترام بالفعل,و عندما عدنا إلى دكانه الكبير, اجلسنى أمامه و بدأ على وجهه التركيز الشديد واخبرنى بأننى ما دمت قد فقدت اموالى بلا رجعه, فيجب علىّ ان اعمل لتعويض ما فقدته, فعرض علىّ ان اعمل معه ضمن طاقم معاونيه, و ان احمل البضائع من المخزن إلى الدكان و العكس, بمقابل مجزٍ و براتب اعلى قليلاً من باقى مَن هم فى وضعى,إكراماً لمنزلة الأستاذ "إيهاب" و مساعدةً منه لى لسرعه توفير اموال السفر...

انكببت على وجهى ألثم يد الحاج "الصفتى" الذى سحب يده سريعاً, و مسح على رأسى بحنان ابوى حقيقي...و طلب منى التحرك و بدء العمل من وقتها...

يتاجر الحاج الصفتى كأغلب ابناء منطقته فى السمك و مستلزمات صيده, و يعتبر من المسئولين الكبار عن توريد تلك البضاعه للشركة الخاصة بالأستاذ "إيهاب"...كما يقوم بإستيراد بعض البضائع التموينية من الحين للأخر عبر البحار, فيأتيه احياناً بعض

البضائع من اليونان, او ايطاليا و الحين الاخر من لبنان و المغرب, ثم يقوم بتوريدها لشركة الأستاذ "إيهاب" و بعض الشركات الاخرى...

الحاج الصفتى اشتهر بأمانته و اسعاره المناسبة لبضائعه, فبارك الله فى بضاعته, و جعله من اكبر التجار بتلك المنطقة, و اسماً تنتفض اجسام الرجال احتراماً عند ذكره فى اى حديث...

دامت خدمتى للحاج الصفتى مدة خمسة اشهر, ذقت فيها نعيم مدينة الاسكندرية, تعلمت السباحة بمياه بحرها الدافئ, و اكسبتنى شمسها سمرة خفيفة جعلتنى كأبناء الاسكندرية بالفعل..و استطعت بتفانيّ و إخلاصى فى العمل أن انال مكانه مميزة لديه...

بالطبع هذه المكانة كانت كالشوكة فى حلق بعض المعاونين القدامى, الذين تميزوا من الغيظ لرؤيتهم شاباً حديث العهد قد استحوذ على إعجاب رئيسهم, بينما بعضهم قد جاوز الخمس سنوات من العمل و الكد المستمر, فلم ينل إلا مرتبه الشهرى المعتاد...

تلك الكراهية لم تتوان عن إشعال جذوة عداوات عديدة, ما لبثت ان اضرمت النيران فى كل ما بنيته بينى وبين الحاج الصفتى من طرق و دروب ممهدة....

لقد ارهقنى تذكر كل تلك الاحداث..

أحتاج للنوم لأهضم ما تناولته اليوم من طعام...

****

اليوم السابع

الظلام سائد..

ربما كنا فى الصباح الآن, ولكن صباحى هنا فى تلك الزنزانه الغامضة ماهو إلا سواد قاتم....

كلمات مثل النور, ضوء, بريق,جميعها صارت من الماضى, فها انا كما أظن قد اكملت الاسبوع بدون ان ارى و لو ضوء عوداً من الثقاب...

هل انتظر وصول وجبة اليوم ؟

ام اظننى قد بدأت فى الاعتياد على ترف الحلم ؟

حسناً...لا مشكلة ان تسليت ببعض الذكريات حتى يأتى موعد إطعامى..و إن لم يأت فلا مشكلة أيضاً...الجوع و الظلام ليسوا بالجديد بالنسبة لى...

قاسيت الجوع و العطش خلال اغلب فترات حياتى..

منذ صغرى و فى فترة انضمامى لمجتمع "سعيد"..ثم تناسيته قليلاً لبعض السنوات, وظننت ان هروبى إلى إيطاليا سيفتح ابواب الجنة على مصراعيها, فوجدت الجوع و قد اتى مُرحباً بى مرة اخرى مصطحباً معه صديقه الاثير..

الظلام...

وجودى بالزنزانه هنا لم يكن للمرة الاولى فى حياتى...فقد قاسيت قسوة السجن لبعض الايام فى ايطاليا أيضاً...

أراك تسب وتلعن...

لقد اسرفت فى ذكر إيطاليا وما حدث بها, بينما اسوّف و اؤخر فى سرد ذكرياتى, فلم نصل للمرغوب بعد..

لكل حادث مقدماته..و الاسباب التى تقودنا إليه..فإذا رغبت فى معرفة احداث إيطاليا, فلابد لى من ذكر ما حدث قبلها...

فلتحاول الامتياز بالصبر, فنحن الآن لا نملك سواه بجانب الظلام و الوقت الكثير...

توقفت عند بداية صراعى مع الحاج الصفتى...

****

لم يكن صراعاً بمعنى الكلمة, ولكنه كان اشبه بالمناوشات, فبعدما استطعت نيل إعجاب و ثقة الحاج الصفتى, اوغر ذلك فى نفس بعض من معاونيه...اجتمعوا معاً كما اجتمع اخوة يوسف - عليه السلام - فكان الشيطان كبيرهم و محرضهم الاول على محاولة الايقاع بينى و بين الحاج...

ظلوا على خططهم السوداء حتى بدأت بذرة اعمالهم فى الإنبات, و بدأ يتضح بعض الشك والريبة فى تعاملات الحاج الصفتى معى...

نشر هؤلاء المعاونون بعض الاشاعات المغرضة عن اتفاقى مع بعض التجار المنافسين على تسريب بعض البضائع من الباطن لدكاكينهم, او إتلاف بعض البضائع الاخرى لإنزال الخسائر بتجارة الحاج...

اعترف أننى لم افعل حرفاً مما يقولون, ولكن سوء الحظ وعدم التوفيق لازمنى فى بعض المواقف التى ورطتنى بالفعل فى تأكيد تلك الصورة الغير مثالية عنى لدى الحاج الصفتى...ليأتى الحاج فى نهاية الشهر الخامس ليخبرنى بطرده لى بشكل هادئ احتراماً لمنزلة الأستاذ "إيهاب" و وفاءاً للشهور الخمسة التى مرت بيننا بسلام...

اخبرنى بعنوان أحد اصحاب المراكب ,ممن ينقلون الشباب بطرق غير شرعية عبر البحر إلى بلدان أوروبيه, لتهجيرهم بحثاً عن الرزق فى أراضٍ جديدةٍ لم يروها من قبل...ثم اغلقت صفحة الحاج الصفتى إلى غير رجعه...للأسف...

****

القبطان "درويش"...

إذا افترضنا أن تلك الاخشاب المتهالكة ماهى إلا سفينة...فسنستطيع الافتراض ان الريس "درويش" قبطاناً من قادة أعالى البحار...

عندما تعرفت بالقبطان "درويش" عادت بى الذكريات لأيامى بالشارع و كل ما تعرضت له من فساد و إفساد...ذلك القبطان كان شيطاناً رجيماً يسير على قدمين...

عملت معه لبضع شهور تسديداً لنفقات ترحيلى إلى ايطاليا...يعمل القبطان "درويش" كمهرباً للممنوعات و البضائع عبر البحر..يمتلك ما يقرب من نصف دسته من المراكب و السفن الصغيرة التى تحتمل نقل الحمولات الخفيفة..تلك الحمولات التى ينطبق عليها وصف ما خف وزنه و غلا ثمنه...

الخمر و المخدرات..البضائع المغشوشة..الملابس المقلدة..احياناً قليلة جداً السلاح, ولكنه لا يتحمس لذلك خوفاً من الملاحقة الامنية بالرغم من مكاسبه المالية الكبيرة, فالسلاح بالذات له وضع خاص لدى المهربين, و يفرضون له حساباتٍ خاصة تختلف عن باقى البضائع المهربة...

لم اهتم بالتقرب إليه كثيراً, بل بالعكس, حاولت تحاشى الحديث معه رغباً فى إنهاء تلك الشهور سريعاً ثم السفر نحو الحرية اخيراً...ولكن سماجة القبطان "درويش" لا تعلم حدوداً و لا نهاية..

فمن إحدى طقوسه هو الاجتماع الاسبوعى بمعاونيه و عماله على إحدى شواطئ رأس التين بالقرب من الورش المتهالكة,ليروى لنا ارائه فى الحياة و حكاياته عن عملياته الرهيبة و جسارته التى لا تعرف كلمة المستحيل...

اغلب الجالسين يمقتون القبطان, و الاكثرية تعلم كذبه فى بعض رواياته,ولكن خوفهم من بطشه الشديد يفرض عليهم الصمت والانصياع لكلماته الفاقدة لأى معنى...

بدأ القبطان "درويش" بداية حياته العملية كبحاراً ضئيلاً, ثم استطاع بجشعه و منافقته و ذكائه الحاد أن يجمع ثروة صغيرة ,اشترى بها مركباً ضئيلةً ينقل بها بعض البضائع التافهة...

ثم وقع حظه الأبيض بأنه تزوج إحدى ابناء تاجراً من التجار بحى الأنفوشى..

كان زواجه بشرة خير على ذلك التاجر, فما لبثت ان ربحت تجارته و بدأت فى التوسع, فصار من كبار التجار, و بالتالى انتقلت تلك المكانه للقبطان "درويش" فصار من كبار البحارة, و يمر الزمن و ثروته الصغيرة تتنامى حتى اصبح فيما فيه من جاه و سلطان على باقى البحارة و المراكبية...

علمته الحياة بعض القواعد الاساسية ,التى يجب علي المرء إتباعها إذا اراد الانتصار...تلك القواعد يفترض بأى انسان عادى أن يعلمها و يتبعها بطريقة صحيحة..

لكن للقبطان "درويش" وجهه نظر مشوهة تحثه على إتباع تلك القواعد بكل الطرق الغير شرعية...

الغش سلوك معتاد للغاية بالنسبة للقبطان..

فتلك الخمور التى يهربها و يبيعها فى السر لبعض التجار, اغلبها تم تخفيفه بالماء و سوائل اخرى,فتصير الحمولة المكونة من خمسين زجاجة قد صارت ما يقرب من السبعين زجاجة فى لمح البصر...و إن صارت أكثر من ذلك فلا مشكلة..مكسب من الهواء لشخص ذى ضمير قد مات و تعفن منذ سنوات...

البضاعه قد يغالى فى سعرها قليلاً, فإن وافق التاجر فخير و بركة, و إن لم يوافق فلا داعى لإعطائه بضاعته بجودة عاليه...دِسّ له بعض القطع الهالكة و المحطمة عقاباً له على رفضه اسعارنا...

لكى تربح يجب أن يخسر الاخرون...

قاعده تقارب فى حقارتها قاعده الغاية تبرر الوسيلة...

****

لعنت تلك الشهور التى قضيتها تحت جناحى ذلك القبطان المأفون..و انقذنى القدر وقتها بأن استطعت جمع المبلغ المطلوب اخيراً لأسلمه له لكى يبعثنى فى ركاب المهاجرين إلى إيطاليا...

ارأيت فائدة الانتظار ؟؟

هاقد جاء الجزء الخاص بذكرياتى فى إيطاليا...انصت له واستمع لكل ما سيجرى به..

****

انطلق بنا القبطان "درويش" بسفينته الصغيرة فى ظلمة الليل..الجو بارد للغاية, ولم تفلح ملابسنا الثقيلة فى حمايتنا من تلك البرودة المستمرة..

القلق بادى على وجوه الجميع, فشرطة السواحل تراقب عمليات الهجرة غير الشرعية بشكل متيقظ للغاية, و معدل نجاح تلك العمليات فى الهروب من قبضة الشرطة يقترب من العشرة بالمائة...

نسبة ضعيفة للغاية, لكن كما يقول المثل..الغريق يتعلق بقشة...نتمنى أن نكون من أهل تلك العشرة بالمائة, و يبعد عنا اعين ضباط خفر السواحل...

ارى امامى شاباً فى الثلاثينيات من عمره, و قد نمت لحيته السوداء, و اخذ يتمتم ببعض الأدعية الدينية و قراءة قصار السور...القبطان "درويش" يحذرنا مرة أخرى من خفر السواحل و يعيد إملاء شروطه و تحذيراته علينا..فارتفع صوت ذلك الشاب قليلاً مردداً بقلق:

- " وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون"..

اضحك بداخلى سخريةً من هذا الشاب...

هاهو شخص اخر يمتلك نفس المنطق المشوه الشائع لدى اغلبنا الآن...

فبالتأكيد هو على علمٍ بخطأ ما يفعله وعدم قانونيته كمهاجر غير شرعى, بينما يأمل فى الامن و الامان بيد الله ويلهج قلبه بالدعاء له حمايةً له من شرطة خفر السواحل...

نفس منطق اللص إذا اقبل على جريمته, فدعا للتوفيق الإلهى له فيما يفعل..

****

اليوم الثامن

لقد اقترب النوم منى قليلاً و بدأ الجوع فى الدنو كذلك, لكن يبدو انك متشوق لما ارويه, سأحاول البقاء مستيقظاً لإكمال الأحداث..وعسى يأتى الحل من عند سجانى, فينعم علىّ بالاثنين معاً..النوم و الطعام..

****

نحن الآن فى عرض البحر الابيض المتوسط...

منذ قليل اوضح لنا القبطان خط سيرنا...سنتجه شمالاً حتى نخرج من المياة الاقليمية المصرية, ثم يسير بمحاذاة ليبيا قليلاً إلى أن يمر ناحية السواحل التونسية ليلقى بمن أراد السفر لتونس, ثم يكمل نصف دورة شمالاً لسواحل صقلية, حيث سننزل قبالة سواحل مدينة "باليرمو" الإيطالية...

لم افهم حرفاً مما قال, لكنى وجدت احد الجالسين بجانبى يخبرنى بنزوله مدينه "باليرمو" أيضاً فرافقته حتى موعد وصولنا...

استمرت رحلتنا أياماً...نتحرك فى بعض الاحيان بسرعه شديدة مستغلين الرياح القوية, و فى بعض الاحيان نرسى قليلاً خوفاً من دوريات الجيوش البحرية الاجنبية او شرطة خفرالسواحل العربية...

يبدو أن ذلك الشاب ذو اللحية يمتلك نفساً طيبة بالفعل, فلقد استجاب الله دعاءه و ألقى علينا بالأمان و الستر عن عيون المراقبين طوال الرحلة...

وصلت رحلتنا لنهايتها بالقرب من شواطئ مدينة "باليرمو", فألقانا القبطان "درويش" فى عجالة و اخبرنا أنه إذا استمررنا فى السباحة لبضع ساعات فى اتجاه الشرق, فسنجد سواحل "باليرمو" امامنا...

مرت علينا ساعات اربع من السباحة المتواصلة حتى لاح فى الافق مشهد لشاطئ تناثرت عليه الجبال الصغيرة..

بدأ التفاؤل فى دخوله لقلوبنا بعد ان استوطنها اليأس والارهاق...

اكملنا سباحة لساعه اخرى, لكن حينها وصل أحد الرفاق إلى نهاية قدرته فسقط مغشياً عليه ليبتلعه البحر مننا فى سكون ليحلّ علينا هذا الحادث كالصاعقة..

فى ثوانٍ قليلةٍ انتهى عُمر ذلك الفتى...

كل احلامه و امانيه و رغباته تبخرت فى الهواء او فلنقل ذابت فى الماء مع جسده الذى سيصبح طعاماً للأسماك...

ارتسم الوجوم على وجوهنا, و دام الصمت بيننا جميعاً حتى وصلنا للشاطئ...

****

من حسن حظنا أن تلك المنطقة لم تكن مسكونة بشكل كبير...

انتظرنا جميعاً حتى جفت ملابسنا و حقائبنا...اخرجنا منها حاجياتنا التى اغلقنا عليها الاكياس البلاستيكية خوفاً من ابتلالها بمياة البحر, ثم عدّل كل منا هندامه و عانق من حوله و رحل...

تفرقت المجموعه إلا بعض الافراد الذين اشتركوا فى السفر سوياً منذ البداية, و صرت وحيداً كالعادة...

بدأت فى السير تجاه المدينة, محاولاً استكشاف معالم تلك الارض الجديدة تماماً بالنسبة لى...

لم تكن إيطاليا كالإسكندرية حيث يمكننى فهم لهجة سكانها..بالعكس..لم افهم حرفاً واحداً من لغتهم السريعه كإنطلاق الرصاص, و ميلهم للنهايات الممطوطة للكلمات...

نساؤهم كحوريات الجنة...كدت اتسبب فى فقدانى حياتى امام عجلات السيارات المارقة بالشارع لأكثر من مرة نتيجة مراقبتى لعيونهن الساحرة و خصلاتهن الذهبية التى تبهرك إذا سقطت الشمس عليها و انعكست لعيونك الذاهلة...

البيوت مختلفة و الشوارع كذلك..اسلوب الحياة..المطاعم..السيارات..الناس من حولى..

جميعهم بدوا بالنسبة لى كأننى مسافر من العصر الحجرى قد استقل آلة الزمن للقرن الحادى والثلاثين...

هِمت على وجهى لثلاثة ايام, تذكرت فيهم ايام صعلكتى بالشوارع...

حاولت ممارسة الشحاذة التى احترفتها مسبقاً, فلم انل كثيراً, و لم اعلم حتى ما قيمة تلك النقود التى تحصلت عليها, فلم استطع الاستفادة بها..

لجأت بعد ذلك للسرقة..ما تطوله يداى آخذه فى سرعه و خفة راجياً ألا يرانى أحد... نجحت فى ذلك لبضعه ايام, إلى أن تمكنت الشرطة الايطالية من القبض علىّ فى احدى المرات...

لم اتمكن من الهرب منهم, وحتى عندما ركضت بعيداً عنهم,وجدت نفسى و قد وصلت إلى شارع مسدودٍ...

تغلب عامل خبرتهم بالمدينة على جهلى ,فتمكنوا من الامساك بى تلك المرة بغلظة شديدة..

تنهمر اسئلتهم فوق رأسى بسرعتهم المعهودة فلا افقه شيئاً, ظنوا بى اننى استخف بهم او اصطنع الغباء, فألقونى فى إحدى الزنازين بصحبة معتادى الإجرام الاخرين...

****

كانت تلك تجربتى الاولى مع الزنازين المغلقة...

لكنها لم تمتاز بالوحدة, فلقد تناثر من حولى ما يقرب من عشرين شخصاً, اجتمعنا جميعاً فى مساحة لا تزيد عن امتار عديدة, فتلاصق الجميع و كممت الافواه و الانوف رائحتهم الكريهة...

ظللت صامتاً ساكناً محاولاً عدم إثارة ريبة احدهم...المجرمون ماهم إلا وحوش اوغاد فى بلدنا, فما بالك ببلاد الغرباء تلك ؟ و قد تذكرت حكايات القبطان عن إيطاليا بعصابات المافيا و الإجرام المستفحل بها...

استبد بىّ القلق,إذ اقترب احد هؤلاء المجرمين و قد ارتسمت البلادة على ملامحه الكالحة...دنا منى حتى صار وجهه شبه ملاصق لوجهى,و تكلم بلغة غريبة و رائحة فم اغرب بكثير...

ظهر عدم الفهم جلياً على وجهى, فصدمنى بعنف فى ذراعى, و قد بدأ صوته فى التحول لصياح صاخب, لم يتحرك العديد من الجالسين إلا فرداً منهم انتفض عندما صحت صارخاً بالعربية ان يبتعد..

وقتها قام ذلك الشخص الذى لم تبد تلك البلادة السائده هنا على وجهه, وإن كسا بدنه السواد و القذارة بشكل عام...

قام ذلك الشخص فأبعد المجرم ببعض كلمات بنفس لغته الغريبة, فتململ المجرم قليلاً و تأفف ثم عاد لموقعه مفترشاً الارض و عيناه ترمقنى بغلٍ واضحٍ..

التفت إلىّ ذلك المنقذ و كلمنى بلغة عربية خالطها لهجة تقارب لهجة اهل ليبيا...اعتدت من قبل التعامل مع بعضهم عندما كنت احد رجال القبطان "درويش"...

احتفى بىّ ذلك الليبى و اجلسنى بجانبه مستفسراً منّى عن سبب مجيئى...رويت له ما حدث منذ ان قفزت من مركب القبطان إلى أن أتى بى ضباط الشرطة إلى هنا..استمع لى فى صمت, ثم بدأ الكلام..

- " كل حكيك دا متل ما حصل لى لما جيت من ليبيا إلى هون...اتسكعت متلك لغاية ماعملت بكوجينا "

تخيلته يحادثنى باللغه الايطالية, فتوقفته قليلاً راغباً فى فهم بعض المصطلحات, و رجوته ان يحاول التحدث بالعربية الفصحى, فلابد انها حل اسهل لتلك المشكلة..

زفر بضيق ثم اعاد كلامه قائلاً :

- " كنت بحكى ان كل ما حدث لك , هو ذاته ما حدث لى منذ ان جئت إلى ليبيا إلى هنا...بعد ذلك عملت فى كوجينا..أى مطبخ..مطبخ تابع لمطعم من مطاعم البيتزا المتناثرة بكثرة هنا فى ربوع إيطاليا..

انا كنت معلم ببلدى, ادرس للاطفال فى الصف الخامس,و عندما اشتد بى الفقر و تراكمت علىّ الديون, اضطررت للهروب إلى هنا بحثاً عن المال الذى يخرجنى من تلك الدوامة.."

و بدأ فى سرد باقى قصته...

****

أكمل الليبى قصته قائلاً :

- " كنت فى شبابى اقرأ الأدب الايطالى, ومن بين جميع عظماء الطليان, وقعت فى هوي الشاعر "دانتى أليجيرى"...عشقت قدرته على تخيل الجحيم الذى هبط إليه.."

قاطعته مندهشاً :

- " كيف هبط إلى الجحيم ؟ "

بالطبع كان سؤالى ينم عن جهلى الشديد, و هذه حقيقة اعترف بها, و قابلها الليبى بهز رأسه أسفاً..ثم أكمل :

- " كلا..إنها قصيدة شعر خيالية, توهم فيها نزوله للجحيم و رؤية المذنبين و الطغاه ,و قد استقر كل منهم فى طبقة من طبقاتها التسعه.."

اكمل شرحه لتلك القصيدة, و قد بلغ منى الانبهار مبلغه...

لا اعلم لماذا اضطر هذا المدعو "دانتى" ان يهبط للجحيم تحت الارض ليرى الطغاه و الفاسدين...لو كان رأى دولة "سعيد" السرية لكتب فيها الآف القصائد وليس قصيدة واحدة...

الجحيم ليس عليه بالضرورة أن يتواجد تحت الأرض..

بل إنه واضح للأعمى قبل البصير على سطح الارض, يخرج لسانه متحدياً النظام و القانون و الصالح من الناس...

نحن نحيا فى جحيم دنيوى بالفعل, نمارس فيه الكذب والغش و السرقة و الفساد بأريحية كبيرة, بل ندعو الله أن يوفقنا و يسدد خطانا أثناء إرتكاب تلك الموبقات..

ظللنا فى تسامرنا الهامس رغبةً فى قتل الوقت..إلى أن تناهى إلى اسماعنا صوت طرقات معدنية على باب الزنزانة الحديدى, نتيجة تصادم عصا الضابط مع القضبان الغالقة لنافذة الباب الصغيرة..

صاح فيّ الليبى بسرعه الوقوف ووجهى للحائط, وقبل ان اتبين سبب ذلك وجدت اغلب من فى الزنزانة قد سارع لذلك الوضع فعلاً...

****

ذلك الغاز...يا الله...مرحباً بك يا صديقى الغالى !

****

اليوم التاسع

استيقظ على شعورى بوجود طبق الطعام بجانبى..ياله من احساس جميل !

ازدرد قطعه الخبز و انتهى من كوب الماء فى تلذذ.. ابتسم كلما تخيلت مجئ الغاز كصوت الديك إذا اتى موعد الفجر فانتهت شهرزاد من قصتها الممتعه للملك شهريار المفتون بها و بجمال حديثها...

سأكمل الاحداث الايطالية مادمت وصلت إليها, و إن بدأت أملّ من إلقاء الكلام عليك بلا أى ردود منك...

حسناً..فلأكتفى بوجود من يصغى بإهتمام لكلامى كل تلك الايام..و لنكمل ما حدث..

****

هرع المساجين للاصطفاف نحو حوائط الزنزانه, و سمعت ورائى صوتاً غليظاً يتحدث بنفس اللغه الايطالية الغريبة على سمعى...ثم احسست بحركة احد المساجين بجانبى الذى ذهب إلى مصدر الصوت...بضع لكمات و صفعات, ثم صاح نفس الصوت ببضع كلمات حازمة, اعقبها صوت غلق باب الزنزانه..

عاد كلٌ إلى موضعه و كأن شيئاً لم يكن...

رنوت ببصرى نحو الليبى فاجابنى فى هدوء كعادته :

- " صوت طرقات العصا معناه مجئ الضابط ليأخذ احد المتهمين لبدء التحقيق معه...مع الوقت ستعتاد تلك الاصوات ككلاب تجربة بافلوف.."

وضح على عيناى الجهل الشديد كالعاده..فشرح ليّ معنى ما قال بإيجاز..

- " بافلوف يبقى عالم روسى معروف قام بتجربة احضر فيها بعض الكلاب, و صار يأتى لهم بالطعام فى وقت معين بعد دقه لجرس معدنى بحوذته..

مع الوقت فهمت الكلاب الدرس, فصار دق الجرس مرادفاً لمجئ الطعام...حتى أن الامر وصل إلى سيلان لعاب الكلاب تأهباً بمجرد سماع دقة الجرس, حتى و إن لم يأت الطعام.."

تفهمت ما قاله تلك المرة..

إننا بالفعل كالكلاب الآن, بتلك الحياة القذرة و تكدسنا كقطيع من الحيوانات, ليس كبشرٍ لهم حقوق فى المعاملة..

سألته مرة اخرى:

- "حسناً ماذا سيحدث الآن ؟ "

أجابنى :

- " الضابط بينادى على المتهم لمجئ وقت التحقيق معه, ثم يتم توقيع العقوبة المناسبة طبقاً لحجم جريمته.."

- " ماذا عنىّ ؟ متى سيأتى موعدى ؟ "

- " الله اعلم..قد تنتظر يوماً وقد يتم امرك الآن "

استندت برأسى على الحائط فى صمت, وقد انتهت بداخلى اى رغبة فى الكلام...

****

مرّ يومان بتلك الزنزانه الضيقة...

الرائحة لا تطاق, و بعض المشاحنات الجانبية تحدث بين المساجين, و انا لحضور الضابط منتظرٌ على أحرِ من الجمرِ...

فى نهاية اليوم الثانى, جاءت طرقات العصا, و كالكلاب هرعنا نحو الحوائط...بعض الكلمات الغامضة كالعادة, ثم وجدت من يمسك بىّ من مؤخرة عنقى و يجرّنى نحو خارج الزنزانة...

فوجئت بتلك الحركة و لم استطع ردّها, ولا حماية رأسى من اللكمات و الصفعات المتتالية التى تلقيتها بعد ذلك...

ألقوا بى امام رجلاً يبدو على هيئته انه قائدهم...حدثنى بطريقة قاسية بلغة ايطالية لم افهم منها حرفاً...

ظللت صامتاً,فاستفزه صمتى وصار يصيح فى وجهى و الرذاذ المتناثر من فمه يرتطم بوجهى...

لم يصل منهم أحد لنتيجة ايجابيه معى...فوجدت بأحدهم يدخل و قد بدأ يلقى علىّ بعض الكلمات بلغه تشبه الايطالية...لم افهم شيئاً ايضاً...

ظل يكرر جملة ما بأكتر من طريقة...ادركت ما يفعل..إنه يسألنى بلغات مختلفة بحثاً عن إجابه له بلغه منهم..

هرعت صائحاً :

- " أنا مصرى ! "

توقف الرجل عن الكلام, و قال لقائده :

- " أرابو"

هز رأسه ثم اصدر بعض اوامره بالإيطالية فوجدت احد الجنود قد هرع نحو الزنازين, و عاد بعدها بدقائق و بحوذته زميلى الليبى...

نظر لى بدهشة لم تستمر, حيث أن القائد حادثه ببعض الجمل الايطالية التى رد عليه الليبى بمثلها, ثم استدار نحوى و بدأ فى ترجمه الكلام بينى و بين قائدهم..

قصصت عليه حكاية مجيئى إلى باليرمو..فأصدر امراً بإحالتى للسفارة المصرية التى تتولى ترحيلى إلى مصر مرة أخرى...ابتسمت لخيبتى, سأعود لخانة البداية مرة اخرى بعد كل ما حدث...

هل ارتوى ظمأك بما اخبرته لك عن أيامى فى إيطاليا ؟

****

مرت تلك الفترة العصيبة, و تم ترحيلى وسط بعض المتهمين و المجرمين المصريين من إيطاليا إلى مصر...استقللنا الطائرة التى حطت بنا خلال ساعات قليلة إلى مطار القاهرة الدولى...

استحكامات امنية عديدة, و عشرات من ضباط الشرطة القائمين على حراسة سيارة الترحيلات...

رقعه كبيرة من الشطرنج البشرى مكونة من الزى الابيض المميز لكبار الضباط و الاسود المميز للجنود...

تم نقلنا بعدها بأسابيع إلى أحد السجون..حيث قضيت حوالى ثلاث سنوات هناك...لا داعى لأن احكى ما حدث بالسجن, فيكفيك ما شاهدته من افلام السينما المصرية بخصوص ذلك الموضوع, لكن اود ان اضيف لك ان كل ما شاهدته ذلك, لا يقترب من ربع فظاعه ما يحدث بالفعل...

لذلك حقيقةً لا داعى لذكر ما حدث...

****

عدت إلى الشارع مرة أخرى..و كأن كل ما حدث كان بحياةٍ غريبةٍ عنى, لا ادر من اين ابدأ و لا إلى أين سأنتهى...تقودنى اقدامى لطرق و مسالك عجيبة لم ارها من قبل..شوارع كثيرة اختلف شكلها عن السنوات السابقة..

تذكرت سنواتى الاربع وعشرين الماضية...ماذا فعلت بها ؟

لاشئ..

هل وصلت فيها لما اريد و اطمح ؟

لا اعتقد..

حسناً, ماذا تنوى ان تفعل ؟

لا اعلم..

تتملكنى اذرع المجهول الممتده, و قد صارت كلمة "لا" بادئة اساسية لجميع افكارى و قراراتى...

حينها وجدت تلك الاذرع التى امسكتنى و اغلقت عيناى و اختطفنى لتلك الزنزانه..

****

اليوم العاشر

يا الله..

انزل علىّ رحمتك الواسعه...

اعترف إليك بذنبى, و اشكو لك عن مكنون صدرى..

انت العليم بما يحدث, و الخالق لما استُحدِث...

اخبرنى بما انا فيه من مصاعب, و اخرجنى منها سالماً..

يا ربي...

ادعوك و دموعى تسبق كلماتى, ارحم ضعفى و هوانى..

اتوب إليك, نويت ان ابتعد عن حياتى السابقة بالفعل..

فلتكن بداية جديدة لى فى نور هدايتك يا الله...

****

لم يأت الطعام...و لا اعلم ما سبب ذلك الاحساس, ولكن انتابنى قلق أن تكون وجبتى السابقة هى الوجبة الاخيرة...

ظللت اردد بعض الادعية طوال اليوم..لا حل من الارض الآن..

الحل بيد خالق الارض...

عفوك ورضاك يا الله..

****

صوت مفاتيح معدنية يدور فى باب !!

هل بدأت الاوهام لعبتها اللعينة بعقلى ؟

إنه الصوت الاول الذى اسمعه منذ اكثر من اسبوع...لم اصدق أذنى..هل سيرأف سجانى بي ؟

طاقة من النور انفتحت فجأه لتغمر الزنزانه الضيقة...كلا..اغلقوا الباب..الضوء يحرق عيناى...لم اعتد كل ذلك الضياء المبهر...هل جاءوا بالشمس نفسها لباب زنزانتى ؟

دقائق صامته قضيتها لا يقطع ذلك الصمت إلا أنينى الخفيض,حتى بدأت عيناي فى اعتياد الضوء..وقتها بدأت فى النظر نحو ذلك الباب وقد داريت بعض اجزاء وجهى بكفى...

ارى ظلاً لحدود جسم بشرى ضخم...ارمقه فى خوف, بينما الاضاءة القادمة من خلفه تحجب وجهه فى الظلام...احاول أن اسأله فى تردد خائف:

- " من انت ؟ "

يجيبنى بصوت عميق :

- " لا حق لك فى المعرفة..."

اصمت و الهلع يشتد بعقلى بعد سماع ذلك الصوت...اسأله مرة اخرى :

- " لماذا جئت بيّ إلى هنا ؟ "

فترة سكون قليلة, ثم عاد الرجل بصوته العميق ليقول :

- " هذا أقل عقاب لما فعلته فى حياتك...انت تذكر بالطبع ماذا فعلت...لقد قتلت و سرقت و غششت و افسدت العديد بما حملته من شر وخبث..."

سارعته بالرد :

- " كلا...لقد دافعت عن جسدى ضد من حاول ايذائى او سرقة اعضائى...وما سرقت إلا لإطعام جوفى الجائع, وما غششت إلا لأننى إن لم أغش لكان مصيرى مثل مصير من ضاعوا فى طوفان الجشع الذى اغرقهم,سيلتهمنى من هم اعظم منّي...اما ما حملته و نقلته, فالآتى بها هو من يحمل ذنبها, إنما أنا مجرد عامل بسيط ينقل بضاعه ما من مكانٍ لآخر بدون ابداء اى رأى او سؤال.."

انتهيت من مرافعتى القصيرة..فظل الصمت مستمرٌ...ثم جاء الصوت العميق مرة اخيرة ليعلن قراره..

- " اعذارك واهيةُ...لقد امتلكت قرارك فى كل موقف من تلك المواقف, ولكن الفساد طمس قلبك و عينك,فلم تر حلاً إلا الحل الفاسد الذى يعينك على تحقيق مرادك بسهولة و يدرّ عليك الربح الوفير بدون اى جهد..."

ثم اردف بجملته الاخيرة..

- " مَن هم مثلك يستحقون أن يُتركوا هنا للأبد..بلا طعام او ماء, حتى يقبض ملاك الموت ارواحهم المحملة بالخطيئة..."

ثم وجدت الباب و قد بدأ فى الانغلاق...اهرع بقدر ما استطعت من قوة قليلة نحو الباب, لكن الباب كان قد تم إغلاقه بالفعل, فصار جزءاً واحداً مع الجدار بلا اى مقابض او زوايا اتمسك بها..

اطرق على الباب المعدنى بيدى طرقات هائلة مستمرة, لعل احد يمكنه سماعى, و لكن لا رد..

أطرق الباب..

أطرقه حتى يدمى معصمى و تختلط دمائى بدموعى..

انكفئ على وجهى باكياً..

منتظراً نهاية أجلى بعد عذاب شديد..

****

تعالت ضحكات الممرض "محسن" بعدما انتهى زميله الممرض " محمود" من سرد إحدى النكات الجنسية...اختتم "محسن" ضحكته ببصقة القاها على ارضيه استراحة الممرضين..ثم قال :

- "يخرب بيت عقلك يا محمود...ادفع نص عمرى و اعرف منين بتجيب النكت دى"

يجيبه "محمود" فى غرور:

- "لما تكبر هبقى اقولك"

ليستمر الاثنان فى ضحكهم الماجن..بعدها بدقائق, ارتفع صوت دقات الساعه معلناً انتهاء فترة الراحة, فعادا سوياً نحو عنبر المرضى...يعمل الممرضان بعنبر المرضى الخطرين بإحدى اقسام مستشفى الامراض العقلية بالعباسية..و ينتظرا وقت الراحة بفارغ الصبر لشرب السجائر و التسامر قليلاً بخصوص مرضاهم المستديمين...

- " انتا ايه اخبار المريض اللى فى اوضه 66 ؟ "

- " تقصد اللى فاكر نفسه ف زنزانه ؟ "

- " اه هو...بقى فاكر نفسه فين دلوقت ؟ "

- " هاهاهاهاهاها..لأ دا خلاص فاكر نفسه ميت اصلاً..."

- "يا حول الله..دا حالته صعبة اوى"

- " يا عم ولا صعبة ولا حاجة...دا باشا من البشوات اللى عاشوا عيشة زى الفل طول حياته..لبس كويس و اكل نضيف و فسح و رحلات لبلاد برة...

شاف من الستات كتير و كتير..و عرف المصرية و الاوروبية و الاميركانية و الروسية لكن عمره ما غلط ما واحده فيهم,شكله كان متربى كويس,لحد ما حب واحده شافها ف حفلة من الحفلات اللى بيحضرها..

فضل معاها سنه بحالها لحد ما اتجوزها فى الاخر, و بعد الجواز اكتشف انها كانت بتخونه مع والده...الواد طبعاً اتصدم من اللى شافه, وجات له حاجة ف دماغه...و اديه بقى هنا يا عينى..بياكل بالعافية و فاكر نفسه فى زنزانه..و الحارس اللى على اوضته بيقوللى ساعات بيسمعه بيكلم نفسه و بيقعد يحكى حكايات عجيبة...ربنا يشفى يا عم محسن.."

- " بس يا عم انتا قطعت قلبى باللى قلته دا..ربنا يشفيه فعلاً يا محمود "

****

" - بس يا عم انتا قطعت قلبى باللى قلته دا..ربنا يشفيه يا محمود"

ثم سار الممرضان معاً تاركين ذلك المريض وحيداً كعادته فى حجرته المنعزلة بعيداً عن باقى المرضى...كمسجون منبوذ..

أو مُختطف..

النهاية "

وضع كلمة النهاية فى السطر الأخير من الورقة, وبذلك انتهى الكاتب الشهير " إبراهيم عز الدين" من كتابة روايته الجديدة...تلك الرواية التى استمر فى كتابتها خمسة شهور متواصلة, اجتهد فيها ليخرج افضل ما عنده, ليظل متربعاً على قمة عرش جيل الكتاب الشباب الذى ينتمى إليه, و الذى وصل لقمته بالفعل برواياته المشوقة و افكاره الخلابة...

وضع رزمة الورق التى كتب بها روايته على مكتبه الخشبى الانيق, و اتجه لفراشه الوثير, اغلق عينه و ابتسامه ترتسم على وجهه آملاً فى يومه التالى الذي سيسلّم فيه روايته لدار النشر لتخرج بعدها لقرائه البالغ عددهم بالملايين..

نهاية